أنور الجندي

عالمية الإسلام



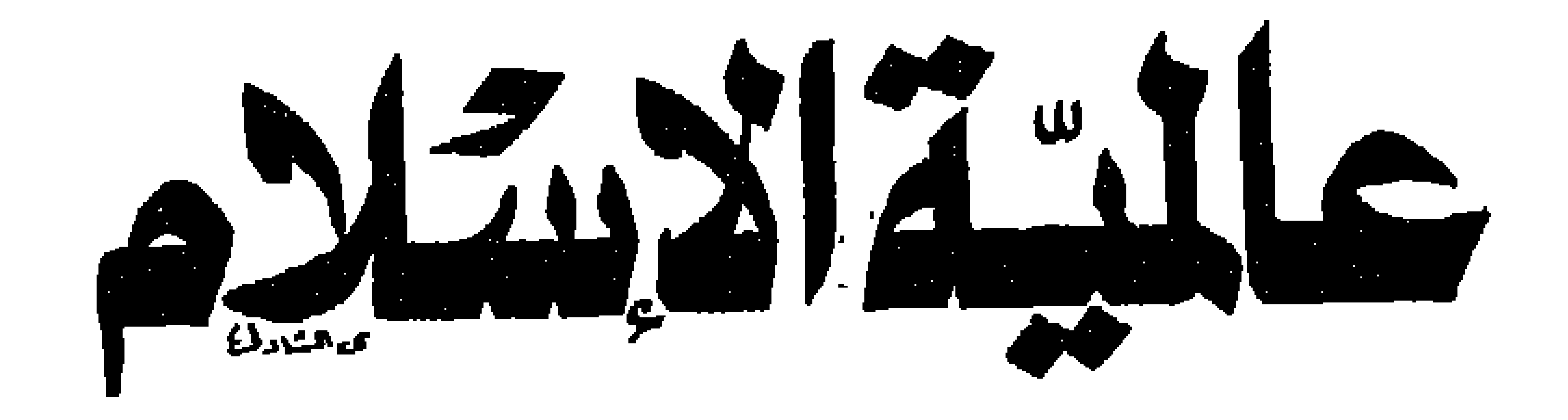


تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



أنور الجندى



عالمية الإسلام

اقرأ ٤٢٦

دار المعارف

(اقرأ ٤٢٦)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الباب الأول

ذاتية الإسلام

١ – الدين الحق (دين الفطرة)
٢ – ذاتية الإسلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أولاً : الدين الحق

وافق الدين مسيرة البشرية منذ يومها الأول ، عندما بدأت رحلة الإنسان فى الأرض ، كان هناك وحى السماء الهادى للطريق ، والمضىء لحياة الإنسان من حيث كونه مفضلاً على كثير من خلق الله ، ومن حيث كونه حامل الأمانة : أمانة المسئولية الفردية ، وأخلاقية الحياة المرتبطة بالجزاء . فالدين هو ضوء الحياة الكاشف ، والمنهج الذى يلتمس لقيام حياة بشرية كريمة على وجه الأرض لتحقيق الرسالة الحقة : رسالة تعمير الأرض ، وإقامة العدل ، وتأكيد الإخاء البشرى .

ولقد تواترت الأديان تحمل هذه الرسالة إلى البشرية ، ثم جاء الإسلام ليضعها فى إطارها الثابت ، وصورتها النهائية ، مصححاً كثيراً من تفسيرات الإنسان ملتمساً بها العودة إلى المنابع الأصيلة لدين الله ، لذلك أصبح تاريخ البشرية بالنسبة للإسلام مقدمة وإعداداً وإرهاصاً بالكلمة الخاتمة الحاسمة .

لقد قطع الإسلام الامتداد الفكرى والإجماعى والثقافى بين ما قبل الإسلام وبعده عند العرب أولاً ، ثم فى كل مكان ذهب إليه ، وقطع امتداد الوثنية فى العالم كله ، وأن العالم الإسلامى قد تجاوز تاريخه القديم

كله بالإسلام ، ونسيت مصر وسوريا والمغرب طوابعها الفرعونية والإغريقية والرومانية والوثنية .

لقد جاء الإسلام فيصلاً قاطعاً بين عصر وعصر ، وحضارة وحضارة ، وطوى صفحة الفرعونية والإغريقية والرومانية والفارسية ، وانطفأت بيوت النار ومعابد المجوسية وعبادة الشمس .

وقضى على الشرائع التى كانت تفرق بين الناس فى حق الحرية تبعاً لاختلاف أجناسهم وطبقاتهم ، أو تبعاً لتفاوتهم فى الأنساب .

عارض الإسلام عبادة قوى الطبيعة (السماء والضوء والنار والهواء) والتناسخ وإباحة الأموال والنساء ، والدهرية (الكفر بالبعث والجزاء) وتقسيم الإنسان إلى عنصرين : معدن وجوهر . أى الجسم والنفس ، وعارض وحدة الوجود التى ترمى إلى إلغاء ما بين الطبيعة الإلهية ، والطبيعة الإنسانية من تمايز ، وعارض سقوط التكاليف ونظريات الفيض والإشراق ، وعارض تحريم صيد الحيوان بدعوى قتل النفس والتقزز من الصيد رحمة بالعصفور ؛ وأنكر الإباحية وعبادة الجسد ، وتغيير الفطرة ، وتقليد الطبيعة وتغيير خلق الله .

ولم يلبث الإسلام أن شكل لونه المميز على خريطة العالم وطابعه المفرد فى بناء الإنسان ونظريته المتكاملة المتجددة بالتوحيد والإيمان والأخلاق فى تفسير الكون والحياة . ومنذ ذلك اليوم أصبح للمسلمين قبلتهم الواحدة التى لم يحيدوا عنها ، تهوى إليها قلوبهم وعقولهم بالإيمان والفكر ، ولم يكن لهم بعدها وإلى آخر الزمان قبلة أخرى . وما تزال الكعبة وستظل مركز الدائرة فى أرض الإسلام .

حدث هذا وأعطى أثره الضخم العميق حتى ليقول أحد الكتاب المستغربين (فيليب حتى) « لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى النبى محمد كان صاحب رسالة ، وبانى أمة ، ومؤسس دولة . هذه الثلاثة التى قام بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت فى نشأتها وحدة متلاحمة لا يمكن أن تنفصم الوحدة منها عن الأخرى ، وكانت إلى حد ما متوافقة يشد بعضها أزر بعض . وكان الدين من بينها على مدى التاريخ ، القوة الموحدة . وكان أبقاها زمناً حتى إذا رحت تعد الناس فى العالم اليوم . وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعو نفسه مسلماً » .

وفى تقدير الباحثين المنصفين فى العالم كله اليوم أن « محمداً » صلى الله عليه وسلم هو القائد الأول للفكر الإنسانى الذى وقف ينادى بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأنهما لا تنخسفان لموت أحد .

يقول جب : لقد رفع الإسلام لواء التوحيد عالياً أمام التفكير الوثنى فكان أن صار أصلب مقاومة ، وأقوى تثبتاً بأهداف ثقافته التى قامت على إضعاف ذكرى الثقافات الموروثة . بل على محوها فى بعض الأحيان فى نفوس معتنقيه ، وإحلال تاريخ الإسلام وتقاليده عليها ، ونسى الناس فى كل الأقطار تقريباً ما كان لهم من ماض قبل الإسلام ، نسى المسلمون فراعنتهم وبطالستهم . ونسى الأتراك خواقينهم ، وحمى الإسلام من دخول تقاليد غريبة الجوهر عن كنهه الصحيح حتى يلائم أغراضه ، ذلك هو الاختلاط الدائم الذى ظل قائماً بين أنحاء العالم الإسلامى ، ولا سيما بين الأطراف ومركز الإسلام ، وأهمها الحج والتجارة .

وليس الإسلام ديناً بالمعنى المجرد الخاص ، بل هو مجتمع بالغ الكمال

يقوم على أساس ديني ، ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية . لأن ظروفه من أول الأمر أدت إلى ربط الدين بالسياسة . وقد أكد هذه النزعة الأصيلة ماثلا ذلك من موضوع القانون الإسلامى والتنظيم الاجتماعى ويجب ألا يغرب عن بالنا أننا ندرس مجتمعاً لا تزال تتردد فى صميمه بكل قوة هذه الفكرة . والحق أن نمو هذه الفكرة فى الإسلام فاق كثيراً ما وصلت إليه فى أوربا . فقد كانت متانة الصلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتماعية ركناً أساسياً من فكرة المسلمين عن نظام العالم ، حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة فى الإسلام .

إن طريقة انتشار الإسلام أسبغت عليه أول الأمر صفة الدين الغالب ، فى حين أن الدين ذاته لم ينتشر بالسيف . وقد اقتنع متبعو الإسلام جميعاً بفكرة أن الإسلام دين قاهر » .

حدد الإسلام معنى الدين أنه : « إسلام الوجه لله ، وإخلاص النفس له وحده حتى لا يكون فيها لغيره شريك يعبد ويسمى إلهاً ، وإخلاص الدين والعقيدة لله ، خضوعاً وانقياداً لله وحده وليس لأحد غيره » والدين واحد على لسان جميع الأنبياء :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

والدين من عند الله وليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو من نتاج الأرض وليس هو أفيون الشعوب . وقد أقام الإسلام مقاصده على أصول عامة : توكيد وإحياء عقيدة إبراهيم ، والاعتراف بجميع الرسل والأنبياء

السابقين وإرساء القواعد الأساسية لمجتمع إنسانى سليم ، وإقامة العلاقة بين الله والإنسان : علاقة مباشرة ، لا وساطة ولا حجاب .

أقام فكرة التوحيد فى مواجهة الوثنية والتعدد ، وأعلن عن إباحة زينة الله فى مواجهة الأنسحاب من الحياة . وأعلن فكرة العلم فى مواجهة عداوة العلم وأعلن التكامل فى المفهوم الجامع بين العقيدة والشريعة ، وبين الدنيا والآخرة فى مواجهة الانشطارية . وأعلن المسئولية الكاملة للمجتمع إزاء الضعفاء والفقراء فى مواجهة القضاء على الضعفاء ، وأقام الإخاء الإنسانى إزاء التفرقة العنصرية ، وأحل الإسلام البيع وحرم الربا ، وأعلن رب العالمين الرحمن الرحيم للناس كافة ، وإعلان اليوم الآخر يوم الجزاء والحساب كفاء المسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاقى ، وإلغاء العبودية والرق وحقوق المرأة ، وإلغاء العصبية القبلية ، والربط بين العالم الداخلى والخارجى للإنسان ، وبين عالمى الغيب والشهادة فى الحياة .

ومن مفهوم الإسلام للدين أنه رفض السحر والأسطورة والمجهول ، وأعلن الرسول أنه ليس من مهمة النبى أن يعلم الغيب ، وإنما الغيب لله ، وأن القرآن ليس من عند النبى ولكنه من عند الله ، والقرآن يحوى عتاب النبى

وأعلن الإسلام ديناً عالمياً للإنسانية جمعاء لا يستمد اسمه من النبى ولا نسبته من الأمة ، اعتمد على معجزة كبرى باقية هى القرآن المنزل من عند الله وقد انطلق من أول كلمة نزلت : « اقرأ » : فالإسلام بنى على المعرفة والعلم والتجربة والتأمل .

ومن أبرز طبائع الإسلام : الثبات فى القيم الأساسية ، والحسم فى المقررات العامة دون أن يفسح مجالاً لأنصاف الحلول .

وليس هناك فاصل بين العالمين الروحى والدنيوى . بل تكامل كل شىء فى الإسلام لله ، عالم القيم هو أساس عالم الناس الذى هو تطبيق للقيم مع حرية الإرادة التى هى مناط المسئولية والالتزام الأخلاقى ، ومع الحركة فى إطار الهدف الربانى الذى جاء به الدين ، من حيث التوحيد والإخاء الإنسانى ، والشورى ، وإشراك الناس فى ثمرات الأرض وفى اعتبار العمل هو القيمة الأساسية ، وهكذا أعاد الإسلام للدين مفهومه الربانى الأصيل .

ثانياً : ذاتية الإسلام وطابعه المفرد

يلتقى الإسلام مع الأديان السماوية فى الأصول العامة ، فهو واحد منها ، وهو خاتمها . . فالمصدر الذى أنزل الأديان للبشرية جميعاً . هو الله سبحانه وتعالى ، ولا تبديل لكلمات الله . غير أن الإسلام استطاع الاحتفاظ بمصدره الأساسى وهو « القرآن » نصاً موثقاً محفوظاً من لدن الحق تبارك وتعالى ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لم تصبه زيادة أو يعتوره نقص ، فهو النص الموثق الذى حفظ كلمات الله مدى أربعة عشر قرناً ، وبه ارتبطت اللغة العربية ، فما زالت تفهم وتقرأ ، وتبلغ القلوب والأذهان فى أصفى نهج ، دون أن تجد حتى من نفوس البسطاء . أى حاجز يردها لأنها من كلام رب العالمين .

ولقد حفظ الله للمسلمين سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه ، وكلماته ، ومواقفه ، حارة متدفقة بالحيوية ، حتى ليستطيع المسلم أن يعرف ماذا كان يعمل الرسول فى كل ساعات يومه ، على مدى أيام حياته ، وهذان الأمران مما لم يتوفر لأى نبىّ أو دين فى رسالة أو كتاب ، على مثل هذا النحو من الدقة واليقين . ومن هذه المصادر تتبين حقيقة الإسلام وطابعه المفرد فى عديد من الجذور الأساسية :

أولاً : الإيمان بالله وحده ، دون شريك أو تثنية أو تعدد .

ثانياً : الإيمان برسالة جميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة .

ثالثاً : الإقرار بوحدة البشرية ، وحدة الدين ، ووحدة الأخلاق وثباتها .

رابعاً : الجمع بين « العقيدة والتشريع والأخلاق » فى كل متكامل ، والربط بينها بحيث تستحيل تجزئة هذه العناصر الثلاثة .

خامساً : بروز قاعدة حرية الفكر : « لا إكراه فى الدين » .

سادساً : إنكار مفاهيم الحلول والاتحاد ، وإقرار وحدانية الله .

وتفرده ، بأنه – سبحانه – الأول الذى ليس قبله شىء ، والآخر الذى ليس بعده شىء . وأن هذا الكون كله من صنعه ، وهو ليس متحداً به .

سابعاً : ليس الإنسان مسئولاً عن خطيئة أحد ، وليست هناك خطيئة لأحد ، مهما كان ، تنسحب على الناس جميعاً أو البشرية كلها .

ثامناً : لا تنفصل الأخلاق عن العقيدة ، ولا تقرر الفضائل إلا من داخل إطار الايمان .

تاسعاً : الجهاد ، ذروة سنام الإسلام ، وأعلى مقرراته وفرائضه .

عاشراً : الايمان بالآخرة ، والبعث ، والجزاء ، وأن الدنيا هى دار التجربة والعمل ، وارتباط الدنيا بالآخرة .

حادى عشر : إقرار المسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاق ، وهما موضع الحساب .

ثانى عشر : الجمع بين الثبات والتطور : فهناك الثوابت التى لا تتغير ، وهى الأصول التى تقوم عليها حركة الإجزاء .

وفى الشريعة حدود عامة لا تقبل التطور أو التغيير ومسائل فرعية يجوز فيها الاجتهاد بين عصر وعصر ، وبيئة وأخرى .

ثالث عشر: للمعرفة جناحان : روح وعمل . أو وحى وفكر . الوحى أساس : والعقل فى حدود مهمته وقدرته خادم للوحى .

رابع عشر: العالم ليس سرمدياً ولا أزلياً ، بل هو حادث ، وكل شىء فيه له أجل مقرر.

خامس عشر: الأخلاق ثابتة : وهى أخلاق تقوى لا أخلاق سعادة .

سادس عشر: لا إشراق ، ولا رهبانية ، ولا تناسخ .

سابع عشر: ليس هناك من يسقط عنه التكليف . ولو بلغ أعلى درجات العبادة .

ثامن عشر: الإسلام منهج حياة ، يوحد بين الدين والمجتمع ولا يفصلهما .

تاسع عشر: المفهوم القرآنى ، هو أساس منهج المعرفة ، وليس منهج الفلسفة .

عشرون : أخوة ، ومساواة ، وترابط ، وليس عبودية ، ولا نظاماً تستعلى فيه طبقة خاصة ، وإلغاء للرق والسخرة ، وتحرير للعبيد ، وإدخال لهم فى نطاق الإخاء الإنسانى .

واحد وعشرون : اعتراف الإسلام بالرغائب البشرية وإباحتها فى إطار الضوابط الشرعية والأخلاقية ، والاعتراف بالخطأ والطاقة فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وهناك الغفران والعفو . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه .

ثان وعشرون : لا كتمان للعلم ، بل دعوة إلى إذاعته و بثه فى الناس ، وعقاب لمن يكتمه .

ثالث وعشرون : دعوة إلى التحرر من التبعية والتقليد .

رابع وعشرون : دعوة إلى الإنفاق ، وتفرقة واضحة بين البيع والربا « وأحلّ الله البيع وحرم الربا » .

خامس وعشرون : قرر الإسلام أن للاجتماع نواميس ثابتة ، وأن للوجود الإنسانى سنناً هى سنن الله فى الكون ، هذه السنن التى لا تبديل ولا تغيير فيها ، والتى تحكم الحضارات والمدنيات . وقد جاء هذا فى القرآن . قبل أن يتخيلها أعلم أهل الأرض تخيلاً . « سُنَّةَ الله فى الذين خَلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

سادس وعشرون : إقرار مفهوم التقدم على أنه مادى ومعنوى ، وأنه خالص لله : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُواً فى الأرض ولا فساداً » .

سابع وعشرون : ليس هناك يوتوبيا خيالية ، بل هناك واقع متصل بطبيعة الإنسان ، لا يدفعه إلى الزهادة والاعتزال ، ولا يدفعه إلى التحلل والانحراف .

ثامن وعشرون : عالمية الشريعة ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان : فهى إطار مرن ثابت القوائم ، يبيح حرية الحركة ، ويسمح بالتشكل فى داخله على النحو الذى يوافق العصر ، فقد عنى الإسلام بإفراغ تعاليمه فى صيغة كلية وأصول عامة .

تاسع وعشرون : هناك ترابط واضح بين العروبة والإسلام ، وبين الأرض والأمة ، وهناك وحدة الفكر التى تضم المسلمين جميعاً وتصهرهم فى اتجاه واحد ، قائم على التكامل والعدل والحق .

ثلاثون : فصل الإسلام بين الألوهية والبشرية (كما فصل بين الله والعالم) .

واحد وثلاثون : لم يفرق الإسلام بين الدين كعبادة . والشريعة كقانون ، والأخلاق كسياج كامل تتحرك فيه كل القيم .

ثان وثلاثون : لم يهمل الجانب المادى فى سبيل الجانب المعنوى ، ولم يحتقر الأمور الدنيوية فى سبيل إعلاء الروحانيات ، ولم يضح بالفرد من أجل المجتمع ، ولا بالمجتمع من أجل الفرد ، وإنما أقام من ذلك كله نظاماً متسقاً متكاملاً ، فيه التقاء كامل وتوازن واضح .

ثالث وثلاثون : ليس فى الإسلام تناقض بين المثل الأعلى ، والواقع العملى للناس .

رابع وثلاثون : فى الإسلام يلتقى الدين بالعلم ، والإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الخروج من دائرة المنهج اليونانى القياسى إلى دائرة التجريب فأنشأ المسلمون المنهج العلمى التجريبي .

خامس وثلاثون : طالب الإسلام بترقية الشخصية الإنسانية بالضرب فى الأرض وتعرف أحوال الأمم وطبائعها ، ودراسة ما هى عليه .

سادس وثلاثون : شدد الإسلام بالنهى عن إفساد الفطرة بالتعاليم الضارة ، ونبه إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة ، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داع إلى نحلة .

سابع وثلاثون : دعا الإسلام المسلمين إلى أن يتحروا الحق ، ولا بأس عليهم أن يغيروا رأيهم إذا ظهر لهم وجه الصواب ، ولا يأنف المسلم أن يأخذ بالحقيقة يأتيه بها من يخالفه فى دينه ولغته ، وألا يتعصب لرأى ولا مذهب

تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من خطأ .

ثامن وثلاثون : اعترف الإسلام بناموس الترقى ، واعتبر الإنسان مسوقاً إلى غايات من المدنية بعيدة لم ينلها اليوم .

تاسع وثلاثون : جعل الإسلام ضوابطه فى الأساس مستهدفة عدم استهلاك الإنسان لطاقاته الجسدية والمادية ، بالدعوة إلى القصد لا الإسراف.

أربعون : أكد الإسلام قيام الصلة بين الإنسان وخالقه دون وساطة .

واحد وأربعون : أكد الإسلام أنه ليس فيه سر ولا تناقض ولا أمر يعرفه أحد من الناس دون الآخرين .

ثان وأربعون : ناط الإسلام بكل إنسان تبعة أعماله ، ولم يخول لطائفة من الأمة حق السيطرة عليه فى الاعتقادات والمعاملات .

ثالث وأربعون : دعا الإسلام إلى تعمير الأرض واستخراج كنوزها وذخائرها ، والتنافس فى الصنائع والعلوم النافعة .

رابع وأربعون : قرر الإسلام أن المال وسيلة لا غاية ، وطريق لا هدف ، وأن المال مال الله وحده والإنسان مستخلف فيه .

خامس وأربعون : جعل الإسلام للمبتكرين ثواباً « من سَنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » .

سادس وأربعون : دعا الإسلام إلى المطابقة بين الكلمة والسلوك . والإيمان والعمل .

سابع وأربعون : أعطى الإسلام المرأة مكانتها الإنسانية ، وحقها فى أن تملك وتزاول التجارة وتعقد العقود .

ثامن وأربعون : دعا الإسلام إلى النظر فى الكون ، والتأمل فى

الكائنات ، ومعرفة أسرار الوجود .

تاسع وأربعون : وفق الإسلام بين العقيدة والعلم ، وجعل العلم منطلقاً إلى معرفة الله .

خمسون : سيادة الإنسان فى الإسلام ليست فى سيادته [جسماً ومادة] بل فى سيادة القيم الإنسانية .

واحد وخمسون : جعل الإسلام الجزاء مقتصراً على الذنب وحده ، ورفع أساليب الظلم القديمة ، وحرم فى الحرب قتل الشيوخ والأطفال والنساء والزهاد .

ثان وخمسون : دعا الإسلام إلى الأخذ بالأسباب ، فإن الله ربط الأسباب بالمسببات .

ثالث وخمسون : لا يقر الإسلام أى فروق فى الجماعة على أساس اللون أو الجنس أو اللغة .

الباب الثانى

خصائص الإسلام

١ – التوحيد
٢ – التوازن
٣ – الوسطية
٤ – فريضة الجهاد
٥ – قانون النصر

أولاً: التوحيد

أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار تتمثل فى تطابقه مع الفطرة الإنسانية وقدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات ، وطابعه الإنسانى القائم على الإخاء والمساواة ، وعدم التفرقة بين الأجناس والعناصر ، ويستمد الإسلام هذا المنهج المتكامل الإنسانى الطابع العالمى النزعة من التوحيد . فالتوحيد الخالص الذى يمدّ رواقه على كل القيم هو أسس الأساس فى مفهوم الإسلام . ويبدأ التوحيد بتوحيد الله . ثم يقيم وحدة الجنس البشرى ووحدة الفكر الإنسانى .

وتوحيد الله تبارك وتعالى هو منطلق الحرية والقوة والعمل ، وهو المصدر الأول لتحرير الإنسان من كل القيود والوثنيات ، وتحرير الإنسان من قيد الإنسان ، ومن العبودية الاجتماعية ، والعبودية الفكرية معاً . ومن الرهبانية والزهادة ، ومن الترف والإباحية فى نفس الوقت .

ولا ريب أن الإيمان بالله وحده هو منطلق الإيمان بالبعث والجزاء ، ومسئولية الإنسان والتزامه الأخلاقى ، وهو الذى رفع الإنسان إلى مستوى الاستخلاف فى الأرض .

ومن منطق التوحيد آمن الإنسان بقضاء الله ، واندفع فى الأرض يحقق إرادة الله دون أن يخشى الموت .

وهذا المعنى هو الذى التفت إليه (بارتلمى سانتهلر) حين قال : « إن

الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً فقد أطلق العقل الإنسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدى الكهنة من ذوى الأديان المختلفة. فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وأن محمداً بتحريمه الصور فى المساجد ، وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنسانى من وثنية القرون الأولى ، واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه ، وأن يبحث عن الله خالقه » .

والتوحيد هو ركن الأركان فى الإسلام : وشرط التوحيد . الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وتنزيهه عن كل صفة يتصف بها خلقه : والإيمان بأن الله سبحانه هو مبدع هذا العالم وموجده وخالقه من العدم ، وأنه يمسك العالم فى وجوده ونظامه وهو القديم فليس قبله شيء . وهو الآخر فليس بعده شيء ، وأنه يعلم دقائق الأمور فى هذا الكون .

ولا ريب أن مفهوم التوحيد يعنى استغناء الإنسان عن كل ما سوى الله ، ومن هذا أعطى المسلم ذلك المفهوم من الكرامة والإباء والشعور بالعزة . وفى هذا المعنى قال الشاعر محمد إقبال :

« المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب حيث سار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته » .

ويقول ولفرد كانتو سميث : « ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع » .

وأبرز مفهوم التوحيد هو تأكيد الإسلام على قيام العلاقة بين الإنسان

وربه مباشرة دون وساطة حيث جعل الإسلام أن كمال النفس فى حسن اتصالها بالله، وأنه جعل الرقابة على الإنسان وعمله لله وحده . فهى ليست من شخص أوهيئة ، وإنما هى قائمة على اعتقاد الإنسان بأن الله يراه .

يقول العلامة مسمر : إن التوحيد الذى هو أساس الدين الإسلامى كان السبب الأول فى نجاح دعوة محمد ، وأن إعلان محمد هذا التوحيد فى عصر ملت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول ، حتى إنه ما كاد يفوه بالدعوة إلى توحيد الله حتى استنار العالم كله بدعوته . وفضل الإسلام يظهر مما فاه به محمد وهو يسقط الأصنام التى كانت حول الكعبة (وقل جاء الحق وزهق الباطل)

ويقول روم لاندو : « إن الإيمان بالله جنب المعارف الإسلامية الانقسام إلى دينية وعقلية » .

ولقد كان مفهوم التوحيد فى الأسلوب هو الفيصل الواضح الدقيق بينه وبين عشرات من النحل والمذاهب والعقائد ، وعلى أساسه رفض الإسلام التعدد والوثنية والأثنينية ورفض به المسلمون رأى أرسطو فى الله ورأى الفلسفات الهلينية فى تجاوزها . والفلسفات الغنوصية فى قولها بالاتحاد والحلول .

ذلك أن إله الإسلام هو إله البشرية كلها ، وتشمل رعايته التى لاحد لها ورحمته الواسعة جميع الأمم والأقوام ، وليس كإله إسرائيل الذى يفضل شعبه على الشعوب الأخرى .

وقد أجمع الباحثون المنصفون على حقيقة لا ريب فيها . هى أن التوحيد هو الأساس الذى كان مصدر نجاح دعوة محمد .

ويقول أحد الباحثين فى هذا المعنى : يريد الإسلام بكرامة الإنسان أن يمنعه من أن يخضع لغير الخالق ، ويأنف أن يكون الإنسان عبداً للإنسان وفى ذلك صدق حرص الإسلام على التجرد من كل عبودية للعباد ، ومن إحساس الرجل بأنه أقل من سواه ، وعلى ارتفاعه عن الخضوع لغير الله حيث لا فرق بين الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والأسود والأبيض إلا بالتقوى ،

ويقول رينيه ميليه : « لم يقرر الإسلام وساطة بين الله والناس يرجع إليها الحل والعقد فى كل الأمور ، ولم يُسَنّ نظام الصوامع ، وقضى على عادة العزوبة التى كانت متبعة ومستفيضة ، وعلى عادة التنسك والخروج من الدنيا . ثم إن الإسلام أرجع الدين إلى حالته الطبيعية ، ولم يأت بشىء من تلك العقائد الفلسفية . بل قال بكل وضوح « لا إله إلا الله » عقيدة سهلة التناول ملائمة للفطرة ، وأعطت الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار»

ومن الحق أن الإسلام صحح أخطاء الوثنية اليونانية التى كانت تقول بالصراع بين البشر والآلهة ، مع تعدد الآلهة ، ومع ترقية الأبطال إلى مقام أنصاف الآلهة أو الآلهة . ومن الحق أن تلك العداوة الضارية التى صورها اليونان بين البشر والآلهة هى زيف لا حدّ له قام على أساس مجموعة من الأساطير كأسطورة بروميثوس سارق النار المقدسة من الإله زيوس . ويتصل بهذا مفهوم المأساة فى الأدب الهلينى . بل والأدب الغربى كله الذى يصل بالقصة دائماً إلى نهاية سحق الآلهة للبشر . وقد أورث هذا المفهوم الأدب الغربى كله طابع التشاؤم والخوف والحقد ، وكان مصدراً لظهور الدعوات الهدامة من الفرويدية والوجودية والهيبية التى تقوم على اليأس القاتل .

أما المسلمون فقد أعطاهم الإسلام مفهوماً رحيماً متفائلاً سمحاً يقوم على أساس إيمانهم برحمة الله وبره وعطائه ، حيث يقوم مفهوم الإيمان بقضاء الله مانعاً دون هذه الظاهرة الحظيرة التى عمقتها فى الفكر الغربى والآداب الغربية نظرية الخطيئة التى استمدت مصادرها من الفلسفات الهلينية وما عاصرها من فلسفات .

ومن الحق أنه ليس بين الله والإنسان صراع . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وإنما جاءاستعلاء الإنسان بالباطل على نهج الله ومحاولة التماس منهج غيره ، هو مصدر هذه الأزمة التى عاشها الإنسان فى القديم وفى العصر الحاضر.

ولقد استعلى الإنسان على كلمة الله بالشرك وبالوثنية وبالإلحاد وبالتعطيل وبعبادة الطبيعة فضل سبيل الفطرة وتناوحته رياح الشك وسموم القلق وآفات الضياع على النحو الذى تقرأه اليوم فى آثار القصص والمسرحيات المادية .

وكان النزوع عن التوحيد عقبة كبرى فى سبيل سلامة النفس الإنسانية وكمالها .

ولا ريب كان التوحيد هو العامل الأساسى فى إلغاء عبادة البطولة . وعبادة الفرد ، ووضع الإنسان المبرز فى مكانه الحقيق مع الحيلولة والامتناع دون وضع الأنبياء والرسل فى مقام الألوهية مع تقدير مكانتهم الحقيقية فى مكان الوحى والتبليغ عن الله سبحانه .

وفى تقدير الباحثين جميعاً . أن قضاء الإسلام على الوثنية واجتثاثها من جذورها منذ أول يوم لدعوته هو العامل الأساسى فى ترسيخ التوحيد

قاعدة لبناء الحضارة الإسلامية .

فالإسلام يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية ، والقوامة على الوجود كله ، وحياة الناس ضمناً والاعتراف بسلطانه المتمثل فى قدرته وفى شريعته . وتقرر العقيدة الإسلامية أن هناك ألوهية وعبودية . « ألوهية » ينفرد بها الله سبحانه . وعبودية يشترك فيها كل حىّ وكل شىء . كما تقرر تفرد الله سبحانة بخصائص الألوهية وتجرد العبيد من هذه الخصائص فالله هو الحاكم والمشرع والمنظم لحياة البشر وعلاقتهم وارتباطاتهم بالكون والأحياء وبنى الإنسان .

وقد أشار إلى هذا المعنى : « ربعى بن عامر » فى حديثه إلى أحد ملوك العالم القديم حين قال : « إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها »

وقد قسم العلماء مفهوم التوحيد : إلى مفهومين : توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية .

أما توحيد الربوبية فقد كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام كالإيمان بالله خالقاً ورازقاً . أما توحيد الألوهية فهو أخطر ما دعا إليه الإسلام . وهو عمل الإنسان كالعبادة بجميع أقسامها ، ويدخل فيها الاستعانة والاستغاثة وهى مفرق الطريق بين الشرك والتوحيد .

لقد اجتمعت المصادر الإسلامية على مفهوم واضح لله سبحانه وتعالى لَخَّصهُ عبد القادر البغدادى فى كتابه : [الفرق بين الفرق] يقوم على الأسس التالية :

أولاً : أن الله سبحانه هو صانعَ العالم ، وأن له سبحانه صفات ثابتة

اختصها لذاته . وأن الحوادث كلها لا بد لها من محدث صانع هو قديم لم يزل . وليس له صورة ولا أعضاء ولا يحويه مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تلحقه الآلام واللذات وهو غنى عن خلقه ، وأنه واحد لا شريك له

ثانياً : أن الله قادر على كل شيء بالاختراع (من العدم) وعلمه واحد يعلم به الموجودات بتفاصيلها من غير حس ولا بديهة ولا استدلال ، وسمعه وبصره محيطان بجميع المسموعات والمرئيات ، وهو لم يزل رائياً لنفسه سامعاً لكلام نفسه .

ثالثاً : والله يراه المؤمنون فى الآخرة ، ولا يحدث شيء فى العالم إلا بإرادته ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والله حى بلا روح ولا اغتذاء ، وكلام الله صفة أزلية وهو (كلام الله) غير مخلوق ولا محدث ولا حادث .

وقد أثبت العلم الحديث مفهوم الله سبحانه وتعالى على هذا النحو الذى يورده أحد العلماء المتخصصين فى الكيمياء (واين أولت) يقول :

« إن الله كما نعرفه ليس مادة أو طاقة ، كما أنه ليس محدوداً حتى نستطيع أن نخضعه لحكم التجربة والعقل المحدود . بل على نقيض ذلك نجد التصديق بوجود الله يقوم على أساس الإيمان ، وهو إيمان يستمد تأييداً علمياً من الدلائل غير المباشرة التى تشير إلى وجود (سبب أول) أو إلى (دافع مستمر منذ القدم) . « إن الإيمان بالله يعدّ لازماً لاكتمال وجود الإنسان وتمام فلسفته فى الحياة ، ولاشك أن الاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً فى النشأة والإبداع ، والغرض والحكمة ، ويساعدنا على تفسير كل مايحدث من الظواهر .

أما النظريات التى ترمى إلى تفسير الكون تفسيراً حيًّا فإنها تعجز عن

تفسير كيف بدأ الكون ثم ترجع ماحدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة ، فالمصادفة فكرة يستعاض بها عن وجود الله بقصد إكمال الصورة والبعد عن التشويه . ولكن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة . ولاشك أن ذلك النظام البديع الذى يسود الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء .

وعلى ذلك فالمشتغل بالعلوم هو أول من يجب عليه التسليم تسليماً منطقياً بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه ولا لقدرته موجود فى كل مكان يحيط مخلوقاته برعايته سواء فى ذلك الكون المتسع أو كل ذرة أو جزئية من جزئيات هذا الكون اللا نهائية فى تفاصيلها الدقيقة .

ويقول (كرسى موريسون) إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة ، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .

ولا ريب أن الإسلام حين أعطى أنقى مفهوم عن التوحيد الخالص لله قد هدى البشرية إلى الطريق الصحيح : يقول محمدعلى كلاى . « إن اعتناقى الإسلام ديناً قد غير – ولاريب – من نظرتى للحياة . لقد كنت أقول دائباً « إننى الأعظم » ولكن بعد اعتناقى الإسلام تعلمت أن أقول (الله أكبر) فالله تعالى هو الأعظم ولذلك لن أستعمل هذه العبارة إطلاقاً فى وصف نفسى بسبب إيمانى كمسلم » ولاريب أن الإنسان فى دائرة إيمانه بالله على هذا النحو يعلم أنه فى حاجة دائمة إلى توجيه إلهى ، وأن الطبيعة البشرية لا تستطيع أن تمضى فى الحياة بغير هداية الله .

٣١

ولا ريب أن هناك ملاحظة هامة : حاولت بعض دراسات الأديان المقارنة إلقاء شبهة حولها . تلك هي القول بأن البشرية بدأت وثنية . ثم عرفت التوحيد . والحق أن البشرية موحدة منذ يومها الأول وأن آدم أبا البشر كان موحداً وكان نبيًّا ، وأن البشرية عرفت التوحيد منذ اليوم الأول ، ثم ضلت عنه وجاءت الأديان ديناً بعد دين تهدى إلى التوحيد .

ولا ريب أن المثل الأعلى للمسلمين هو الله : الحق المطلق ، والخير المحض والكمال الأسنى .

ثانياً : التوازن

١

تقوم الأخلاق فى مفهوم الإسلام على قاعدة التقوى . وهى بذلك تختلف عن مفهوم الأخلاق فى الفلسفات اليونانية وغيرها التى تقوم على مفهوم السعادة والحب أو غيرهما .

والتقوى هى أس الأساس فى مفهوم الأخلاق الإسلامية تقوم على الاتقاء والامتناع عن كل ما حرمه الله . فالتقوى فى مقابل استباحة المحرمات .

وهى تحمل معنى الكظم واجتناب كل خطأ يؤدى إلى تجاوز الضوابط والحدود ، وهى فى نفس الوقت عمل إيجابى نحو الإيمان بالله ، والصلاة والإنفاق والتضحية ، وحين يدعو الإسلام إلى الكظم والمجاهدة ومعارضة النفس ، والامتناع عن بعض مطالب الغرائز والرغبات ، لا يوقع ذلك بالإنسان شرًّا مما يتصوره بعض السيكولوجيين من عصاب أو اضطراب عقلى ، على حد تعبيرهم . وإنما يجىء هذا الخطر من فساد التصور للرغبات والمطالب النفسية والجسمية أساساً . فإذا ما كان الدين قد أباح هذه الرغبات وسمح بها ، ثم وضع لها الضوابط . فإن النفس الإنسانية لا تصاب بأمراض الكظم أو انفجاراته المتوقعة . وإنما تجىء هذه الانفجارات أساساً من مصدر

واحد ، هو الاعتقاد بأن ممارسة هذه الرغبات محرم أوممنوع . والإسلام يبيح الرغبات . ولكنه يؤجلها عندما لا يستطيع الإنسان تحقيقها ، ويجعل لها باباً مشروعاً . ويقفل عنها كل الأبواب .

فالمسلم إذا ما أحس الحاجة إلى المرأة فالطريق إليها هو الزواج . فإذا عجز عن الاستطاعة أجّل تنفيذ الرغبة إلى أن يتيسر له ذلك . دون أن يخل ذلك باقتناع النفس بإباحة الإسلام له وتحقيق رغبته وتأكيد وجوده . ومن هنا فإن المسلم فى إطار الإسلام لا يسقط مطلقاً فى خطر العصاب أوالجنون على النحو الذى عرفه وتحدث عنه الباحث النفسى (فرويد) والذى تصادف أن كانت نماذجه كلها من بيئة مختلفة عن بيئة الإسلام . ومن هنا فإن مقرراته لا تطابق مجتمعاتنا التى تقوم أساساً على اعتبار أن الرغبات الجسدية مباحة فى حدود شرعيتها وضوابطها (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم)

ومن هنا فإن مقدراته من العصاب وغيره إنما تنصب على عقيدة الإنسان إزاء هذه الرغبات ، وليس بالنسبة لممارستها .

يقول ليو بولد فابس (محمد أسد) فى تصويره لمفاهيم الإسلام بالنسبة للجسد ، « يعتبر الإسلام من دون الأديان السامية جميعها أن روح الإنسان هى ناحية واحدة من شخصيته ، وليست ظاهرة مستقلة ، وبالتالى فإن نمو الإنسان الروحى فى نظر الإنسان مرتبط ارتباطاً لا انفصام له بجميع نواحى طبيعته الأخرى . إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته ، فهى ليست نتيجة أية خطيئة أولى ، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام – بل هى قوى إيجابية وهبها الله للإنسان فيجب أن يتقبلها وأن يفيد منها بحكمه على أنها

كذلك : ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست فى كيف يحقق مطاليب جسمه . بل كيف يوفق بينها وبين مطاليب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة » .

إن جذور هذا التوكيد الإيجابى للحياة الإنسانية إنما يوجد فى النظرة الإسلامية القائلة بأن الإنسان مفطور على الخير . وبخلاف الفكرة التى تقول بأن الإنسان يولد موصوماً بالخطيئة الأولى أو العقيدة الهندية القائلة بأنه منحط ونجس أصلاً . ويجب أن يتغير عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو الكمال .

بخلاف ذلك كله يقول القرآن الكريم (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) . أى فى حالة من الطهارة لا يمكن أن تفسد إلا من طريق السلوك السيئ من بعد (ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

٢

فالإسلام يعترف بالرغبات ولا يدعو إلى كبتها . وإنما يدعو إلى ضبطها ويقف بها عند حد متقارب يحققها ويحول فى نفس الوقت دون خطر الإسراف فيها على الكيان الإنسانى . ومن ثم على المجتمع البشرى . بل إن تحريم الزنا فى الإسلام لا ينبعث من كراهية الجنس . بل من احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ، ومن احترام المرأة وتنزيهها عن أن تكون أداة لمتعة رخيصة .

وهكذا يضم الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى فى الإنسان :

بين الرغبات والضوابط ، وبين الروح والجسد ، وبين العقل والقلب ، فيحول دون الكبت والانطلاق ، وبين الترف والحرمان ، وبين الإباحة والتجمد ، فهو لا يقر المادية المغرقة ولا الروحانية المطلقة .

وإنما يوفق بينهما فى تناسق وتوازن ومواءمة تجعلهما متصلتين بالإنسان نفسه من حيث هو جسم وروح ، ثم هو يوازن بينه كفرد له حقوقه وكيانه ، وبينه كعضو فى المجتمع ، وبذلك يتفادى الإسلام انحرافات الشطط والتطرف ، وبذلك أيضاً يقضى على ما سمى بالصراع أو التناقض . وبذلك أيضاً يحفظ للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذى يفرضه الانطلاق والسرف أو الجمود والتحجر .

ذلك التوازن هو طابع الإسلام ، وهو التحدى الذى يواجه مدرسة العلوم الاجتماعية التى تنظر إلى الإنسان على أنه مادة صرفا ، وتحاول أن تقيسه بمقاييس العلوم المادية أو تجارب الحيوان

ومهما حاولت هذه المناهج أن تصل إلى أدق ما تعرف . فإنها لن تستطيع أن تصل إلى الحقيقة ، وسيبقى هناك جانب قوى ضخم غائب عن يدها وتقديرها وحسابها لأنه جانب لا يقاس بمقاييس المادة أو التجربة . ولا يدخل فى دائرة المحسوس .

فالإنسان جسد وروح ، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون على نحو مختلف ، ولقد استطاع كثير من المثقفين أن يقولوا هذا فى صراحة ، ويعلنوا أن النظرة المادية إلى الإنسان على أنه جسد ومادة ، وأن تطبيق مناهج العلوم المادية – التى طبقت على الحيوان – عليه تجعل الباحث عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة .

وقد أشار عالم من كبار العلماء الماديين إلى هذا المعنى هو (ويتهد) حين قال :

« إن التفرقة بين المادة والحياة وبين العقل والجسم يعطى صورة مشوهة ، إن الحقيقة الكونية مرتبطة بعضها ببعض بعلاقات ونظم دقيقة » .

٣

ومن الحق أن يقال إنه ليس هناك نظرة أصدق وأعمق صدقاً وأعمق عمقاً من نظرة الإسلام إلى الإنسان حيث ينظر إليه نظرة متكاملة جامعة تقوم على التوازن ، وهو من أجل هذا يبيح له كل رغباته ومطالبه بعد أن يعترف بها . ولكنه يحيطها بسياج من الضوابط حتى لا يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، وبحيث يكون قادراً دائماً أن ينفك عنها ، وأن يحمل راية الجهاد والمقاومة إذا ما تعرض وطنه أو دينه للخطر ، ذلك أنه ليس أفعل فى تهديم الأمم من إسرافها فى الاتجاه نحو التحلل والإباحيات التى تحطم قوى الإنسان القادرة على المقاومة والفعل ، ولما كان المسلمون ممتحنون على مدى حياتهم على هذا الكوكب بالتحديات نظراً لوجودهم فى منطقة خطيرة ، ولأصول فكرهم ودينهم . فقد كان لابد أن يكونوا من أقدر أهل الأرض على الصلابة والصمود والانفطام عن الشهوات ، والقدرة الدائمة على أن يحملوا لواء الجهاد والمرابطة فى الثغور . ولذلك فإن مختلف الدعوات التى تطرح الآن فى المجتمعات الإسلامية . إنما تستهدف إشاعة روح الشك والتشاؤم والتخاذل وخلق أجواء الترف والتراخي والتحلل . وأن هناك مذاهب

فلسفية متعددة تواجه الوجود الإسلامى ، وتتحدى الضمير الإسلامى ، حيث تدعو إلى إطلاق الوحش الكامن فى إهاب الإنسان وتقول له : افعل ما شئت ولا تبال أية نتيجة بعد ذلك ، وتحاول هذه الدعوات أن تستمد أصولها من الأيدلوجية التلمودية ، وتحاول أن تخدم أهداف الصهيونية بأن تنكر البعث والجزاء ، وتقول إن الدنيا قصيرة والموت قريب فانهل ما شئت قبل أن يضيع عليك كل شىء .

وذلك هو الخطر الذى حذر منه القرآن فى عشرات المواضع وكشف عنه حيث يؤمن المسلم بالمسئولية الفردية والإرادة الحرة التى تجعله موضع الحساب والجزاء فى يوم البعث الذى لا ريب فيه . والذى هو الحقيقة الكبرى من وراء (تجربة الحياة الدنيا) .

ولذلك فإن مفهوم الحرية فى الإسلام ليس هو الانطلاق المطلق من الضوابط والنظم ، ولكنه التحرر من ربقة التقليد والجهل ، ومن ربقة الوثنية والعبودية للقياصرة والأباطرة والفراعنة ، ولن تكون الحرية مطلقة . لأنه لا شىء فى الوجود البشرى يعتبر مطلقاً من كل قيد ، والتطور حقيقة قائمة ولكنه يجرى فى إطار الثبات . والأخلاق من القيم الثابتة وهى جزء من الدين ، وهى غير التقاليد والعادات التى ظنها ليفى بريل ودوركايم أنها هى الأخلاق وفرق عميق بينهما . فالأخلاق ثابتة لأنها متصلة بالإنسان نفسه الذى هو صورة متجددة بكل مقوماتها الأولى ، وغير ذلك من التقاليد والعادات التى تتغير مع الأزمان والبيئات . ولا ريب أن النظرية المادية التى تنكر الوحى والرسالات تختلف فى ذلك مع الفكر الإسلامى الذى يقوم على اليقين الصادق بالوحى والنبوة والرسالة .

٤

إن للإسلام ذاتيته الخاصة وطابعه الإنسانى العالمى الخالد القريب من الفطرة والعقل والمطابق للعلم . فليتجه المسلمون فى فهم حياتهم إلى أصول دينهم وليستضيئوا به .

ثالثاً : الوسطية

١ - عنى الإسلام بوضع تعاليم جامعة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية أفرغت فى صيغة كلية وأصول عامة ، وبذلك أتيح لها صفة الخلود والبقاء ، وهى تعاليم لها صفة التكامل والشمول والترابط .

فقد عنى الإسلام بأن يكون منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك عمد إلى تحرير الفكر من الوثنيات وإعادة تحرير الإنسان من العبودية ، وتحرير البشرية من قيود العنصرية والمادية والإباحية .

ولقد ظلت القيم الأساسية للإسلام واسعة الأفق ، مرنة الأبعاد ، قابلة لكل تجديد فى سبيل الرقى والتقدم والبناء ، ولم يكن الجمود أو التعصب من مظاهرها .

والإسلام نظام يشبع النفس البشرية ويعطيها حاجاتها الروحية والمادية ، يلتقى فيه عالم الشهادة بعالم الغيب .

ولم يكن الإسلام يوماً نظرية فلسفية ولا مذهباً صوفياً ، ولكنه كان دائماً منهجاً فى الحياة يلتقى مع نواميس الطبيعة وفق الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

وقد طبع الإسلام حياة معتنقيه والعرب الذين حملوا لواءه ، ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها ، ولذلك فإن أى حركة فكرية ، أو نهضة اجتماعية لا تستطيع أن تتجاهل هذا الواقع أو تتجاوزه .

ولا ريب أن الإسلام نهج اجتماعى يشمل الإنسانية كلها ، وحركة اجتماعية الدين جانب من جوانبها ، وقد صنع الإسلام المجتمع الإسلامى منذ اللّبنة الأولى وأقام الحضارة الإسلامية من نقطة البدء .

* * *

٢ – والإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية تتصل بالرؤى والمعجزات والخوارق ، لا صلة لها بالمادة أو الحياة . وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح معاً .

وقد تأكد لدى كل باحث منصف أن الإسلام لا يسقط أبداً أمام الغزو التبشيرى لأن تكامله يحول دون سقوطه ، فالإسلام دين وشرع .

وفى الإسلام قدرة المرونة والامتصاص لمنجزات العصر الحديث ، وهو لا يقف عقبة فى سبيل حرية الفكر . وكما أثبت صلاحيته منذ مطالع فجره لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات ودرجات المدنية ، وهو دين فطرة استطاع أن يمنح أهله تلك القوة التى هزمت كل القوى التى حاولت تحطيمه فأزاحها أو صهرها فى بوتقته .

وقد حل الإسلام المشكلتين اللتين تشغلان العالم : الأخوة الإنسانية والعدل الاجتماعى وقد حفظ الإسلام من الانهيار ، ومايزال يحفظه : بقاء القرآن بنجوة عن كل الأخطار ، سليماً لم يمسسه سوء ، والعربى فى أى دين يربطه بالإسلام رباطين : اللغة العربية ووحدة الفكر المشترك الجامع .

ولقد أعطى الإسلام المسلم ذاتية الكرامة والعزة . فالمسلم لا يندفع مع التيار ولا يساير الركب ، بل يحمل المفاهيم الربانية الوحى الإنسانية الهدف ، وقد اتسم الإسلام بالبساطة والوضوح ، وأعطى حلولاً لكل مشاكل الإنسان

والمجتمع ، وهى حلول ثابتة الجوهر والهدف ، متغيرة الصورة والوسيلة ، وهى حلول وقواعد لم تفرض بالقسر والإكراه ، ولكنها جاءت وفق الطبيعة البشرية ومن هدى الفطرة الإنسانية .

وقد اكتملت أصول الإسلام فى حياة الرسول ، ولم تجر إضافة شىء إليها من بعد ، وليس فى الإسلام سرّ ولا تناقض ، ولا ما يصدم العقل أو العلم أو الفطرة .

ومن أبرز مظاهر الإسلام قدرته على التجدد من الداخل ومرونته فى إعادة صياغة نفسه ، وكشف الأغشية والزيوف التى تحاول إخفاء جوهره .

٣ – ولقد كان الإسلام وسيظل حركة تحرر فى مواجهة الاستعمار وحركة عدل اجتماعى فى مواجهة الاستعلاء ، وحركة شورى فى مواجهة الاستبداد وحركة أخوة فى مواجهة العنصرية . وقد جعل من أسسه مرونة التطور بتطور العصور والأزمنة ، ومراعاة الملابسات وظروف الجماعات المتغيرة ، وذلك يتم دون أن يخرج عن أسسه الثابتة . ومرد ذلك فى الحقيقة إلى سعة أطره ، ومرونة أبعاده القادرة على الاستيعاب .

وقد فرق الإسلام بين المعرفة والعقيدة ، وفرق بين العلم والفلسفة ، واعتبر أن المعرفة الإنسانية عامة والعقائد خاصة ، لكل أمة عقيدتها ، كما فرق بين العلم النافع والعلم الذى لا ينفع .

وقد استطاعت العقيدة الإسلامية بسماحتها ، وسعة آفاقها وقيامها على التوحيد أن تجنب المعارف الإسلامية الانقسام إلى معارف دينية ومعارف عقلية ، وليس الإسلام خادماً للمجتمعات والدعوات والمذاهب . بل هو حاكم له مقوماته المستقلة التى لا تخضع ، وهو ليس مبرراً للحضارات

والأنظمة ، ولكن له كيانه المستقل ومقاييسه الذاتية ، وهو لا يقرّ التأويل فى الأصول العامة : كالربا والزنا والخمر والقتل .

والإسلام عقيدة تقدمية بمعنى التقدم الكامل : التقدم المادى والفكرى معاً ، فهو أول من دفع الإنسان إلى الأمام ، وحرره من العبودية والرق والوثنية ، والمادية والشرك بالله .

ولا ريب أن دعامة رابطة المسلمين اليوم هى القرآن ، فالمصحف : هو رمز الوحدة الجامعة ، والقرآن هو موجه المسلمين اليوم .

ويصدق فى هذا قول بارتلى سان هيلر حين يقول : ما تزال تعاليم القرآن التى رقت عقول الملايين من الناس ترقى كل يوم شعوباً متأخرة بإشرابها الحقائق الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية .

ولقد كان الإسلام هو الدين الوحيد—على حد تعبير برناردشو—الذى لديه ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس ، وقد استوحت مفاهيم الإسلام قدرته على أن يغزو العقل البشرى والنفس الإنسانية مرة أخرى . يقول أرنست دينان : ما يدرينا لئن يعود العقل الإسلامى الولود والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها الماضية .

وفى هذا المعنى قال : العلامة جويدى : لا ريب عندى أن الجنس العربى سيلعب مرة أخرى دوراً خطيراً فى تاريخ الشرق والحضارة .

ويقول روم لاندو : لا يوجد سبب على الإطلاق يبرر الزعم الذى يقول إن العربى فقد الصفات التى مكنت أجداده من أن يقيموا حضارتهم

العظيمة فهو لا يزال يملك تلك الرجولة والمروءة . وذلك الاستطلاع العقلى الحاد ، وذلك الخيال المبدع ولا يستطيع أى إنسان يعيش بين العرب دون أن يتأثر بإنسانيتهم التى تغمر قلوبهم وبكرمهم .

ولا ريب أن عمق جذور الإسلام فى البيئة وأثره فى الحضارة عامل هام يجعل المسلمين قادرين على التحرك فى مجال التقدم دون أن يفقدوا صلتهم بدينهم أو أصول عقيدتهم ليشكلوا على الأرض مرة أخرى نفس المنهج الذى جاء به محمد بن عبد الله والذى أضاء للبشرية طريقها .

٤ – أعطى الإسلام للبشرية مزية الوسطية والتكامل إلى حد أن يطمع الكثيرون فى أنه سوف يحقق للإنسانية عملا هاماً . يقول هاملتون جب : « أومن بأن الإسلام لا تزال له رسالة يؤديها إلى الإنسانية جمعاء حيث يقف وسطاً بين الشرق والغرب . وأنه أثبت أكثر مما أثبت أى نظام سواه مقدرة على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة ، فإذا لم يكن بد من وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الإسلام .

ولا ريب أن العقيدة أساس لا سبيل إلى انفصاله فى الإسلام عن الحياة والمجتمع والدين جملة وهو حقيقة واقعية فى أنفسهم وفى حياتهم ، وله وقعه الرتيب فى حياتهم اليومية وهو – على حد تعبير العلامة تريتون – ليس رداء يرتديه الأحبار والعلماء ، وإنما هو واقع عميق ، فهو يجعل المسلمين إذا ادلهم ليل الخطوب – يجعلهم ثابتى الإيمان لا تزعزعهم العواصف والأنواء .

وأكد الباحثون أن الفكر الإسلامى أشد إيغالاً فى الواقعيات من أى فكر آخر . وأن الشريعة الإسلامية تتناول شئون الحياة اليومية ، ولا تقتصر على مسائل العبادات والأخلاق وحدها .

يقول الدكتور إسماعيل الفاروقى : « الحق أن علمية علم الأديان لا تستطيع أن تعالج الإسلام دون اعتبار أن هذا الدين هو دين الله ، أى فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية ، فهو ليس من صنع البشر ، ولا شك أن الإسلام دين الله ، ولكنه أيضاً دين الفطرة والنظر » .

ولا ريب أن الإسلام كما وصفه المنصفون يصنع الرجل المثالى الذى لا يقهر ولا يغلب وسر قوة هذا الرجل هو أنه يؤمن بأن الله واحد لا شريك له . وأن الأمر كله بيده . ومن شأن مثل هذا الإيمان أن يجعل معتنقه إذا نودى للقتال لا يهاب الموت . إذ يعتقد أنه إنما يقاتل فى سبيل الله .

والحق أن الإسلام يربأ بكرامة الإنسان من أن يخضع لسلطان غير الخالق ويأنف أن يكون عبداً للإنسان .

وقد حرص الإسلام على أن يعلم أهله رفض كل عبودية لغير الله ، والتبرؤ من الإحساس بأنه أقل مما سواه ، ودعاه إلى أن يرتفع عن الخضوع لغير الله حيث لا فرق بين غنى وفقير وأسود وأبيض إلا بالتقوى .

والإسلام هو كلمة الله الأولى منذ نزلت النبوات والرسالات ، وأن شرعة الجزاء فى الدار الآخرة مرتبطة بالمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى فى الدنيا ، وأن ما سنه الإسلام من حدود وضوابط إنما أراد به بناء الإنسان الربانى القادر على مواجهة الأحداث والخطوب .

رابعاً : فريضة الجهاد

تعد فريضة الجهاد من أبرز معالم الإسلام التى أهلته للعالمية ، وذلك بما منحته من قدرة على العدل والتسامح نحو كل من التقى بهم أو اتصل بهم ، حماية ورعاية ، وبعدًا عن الظلم والعنف والشطط ، وتراحما وفضلاً ، وقد كان الجهاد فى أعظم صوره قدرة على اليقظة والتأهب ، واستعداداً ومرابطة فى الثغور ، حتّى يعرف العدو أن المسلم يقظ لا ينام (ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) ولذلك فقد كانت الدعوة دائماً : خذوا حذركم ، وأعدوا . ومن شأن هذا الإعداد اليقظ الدائم ، أن يحول دون الأخطار التى يستهدفها العدو ، والتى لم تقع فى تاريخ المسلمين إلا حين رفعوا أيديهم عن مواقع اليقظة ومواقف الحذر والتأهب .

واليوم يدعوهم داع قوى لا يرد إلى العودة من جديد إلى فريضة الجهاد ، وتطبيقها تطبيقاً يحقق لهم المهابة والمكانة التى تجعل العدو فى خشية لهم ، وحذر عن أن يقتحم عليهم أرضهم .

والإسلام هو الذى أعطى البشرية هذا المفهوم الكريم : لتكون الحياة أقرب إلى السلم منها إلى الحرب . فإذا خاض العدو واعتدى ، فما من مفر على المسلمين من أن يواجهوا الموقف بالحسم ، ويردوا عن أنفسهم الكيد والغدر (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) . ولما كان

المسلم هو حامل رسالة إلى الناس ، فإنه يظل حياته كلها فى رباط ، ولا يستسلم للدعة واللين والترف . فماذا يفعل إذا ديست أرضه ، وانتهكت حريته ، ووجد نفسه فى موقف واضح : هو إما أن يواجه العدو . أو يستسلم إلى المذلة ، ولما كانت المذلة ليست من شيمة المسلم - «من أعطى الذلة عن نفسه راضياً فليس من المسلمين» - هنالك كان عليه أن يقاوم ولا يستسلم ، وأن يقف موقف المواجهة الصلبة الصامدة . وقد عرف المسلمون بما علّمهم دينهم بالشجاعة والإقدام ، والثبات فى وجه العدو ، والصبر والطاعة ، وأنكر عليهم دينهم التولى يوم الزحف ، ودعاهم إلى النفرة والجهاد بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . ولقد شهد التاريخ لهم مواقع لا تزال موضع العجب والغرابة فى تقدير المؤرخين والباحثين على أساس مقاييسهم . شهد لهم التاريخ أنهم ما دخلوا حربا إلا وكانوا أقل من أعدائهم عدة وعددًا ، ومع ذلك فقد انتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً . فقد كان من ورائهم ذلك الإيمان الذى لا يتزعزع بإحدى الحسنيين . وكان أحدهم إذا خرج للحرب كان فرحه بأن لا يعود حيًّا أكبر من فرحه بأى شىء آخر ، حتى أثر عن كثير منهم دعوته : «أسألك يا الله ألا تعيدنى سالماً» ، وأثر عن بعضهم الضيق والجزع . لأن نعمة الشهادة قد فاتته . وكان بعضهم يطلب من الله أن يحشره من حواصل الطير كما كان يدعو ربه «نور الدين محمود» . ذلك أمرهم فى الجهاد كما وصفه رسول المقوقس : رأيت قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، وقد أزعجت مفاهيمهم الأكاسرة والقياصرة جميعاً . فقد رأوا أناساً حفاة معروقين ، معهم خيول ضامرة ، لا يهابون الملك ولا الموت ، ولا يخافون إلا ربَّهُمْ ، ولهم فى عسكرهم

دوى بالليل بالقرآن ، وفيهم طمع فى لقاء الله ، ونوال أجر الشهيد .
وفيهم ذلك الإيمان بكتمان العمل وإخلاصه لله . فلقد عرفت مواقف عديدة فى تاريخ الإسلام ، تعد من المواقف الحاسمة ، ومع ذلك فإن الذين قاموا بها مجهولون فصاحب النقب فى معركة دمشق رفض أن يذكر اسمه ، وامتنع طويلاً أن يتقدم نحو خيمة القائد . بعد أن وقف المسلمون طويلاً أمام سور دمشق يريدون نقبه فلا يتاح لهم ، وقد تقدم منهم الكثيرون وانتاشتهم السهام ، حتى تقدم هذا المجهول مندفعاً على فرسه لا يبالى وقع السهام عليه حتى وصل إلى الجدار وكبر واقتحم المسلمون الحصن.

وأمر هذا كثير وعديد . ومن أمثال ذلك ما لقيه المسلمون فى معركة من المعارك من شدة وكيد أحد أبطال العدو ، فنادى قائدهم : أن من قتل هذا الرجل فله ألف دينار ، ويصبح المسلمون ويجدونه مجندلاً وقد ألقى رأسه فى خيمة القائد ولا يعرف من قتله ، ويسألون فلا يجيب أحد ، حتى ناشد القائد من فعل ، فيقوم رجل فيقول إنه هو ، فيسأل عن اسمه فلا يجيب ، ويعطى الجائزة فلا يقبلها ، ويقول : إنما فعلت ذلك لله وحده .

* * *

تلك صورة الجهاد ، الذى كان المسلمون فيه لا يقتلون مدبراً ، ولا يتعرضون لشيخ ولا طفل ولا امرأة ، ولا راهب فى صومعة ، ولا يقطعون شجراً ، وكانوا فيه يعلنون خصمهم قبل القتال بوقت كاف ، ويوفون بالعهد ، ويحترمون الذمم والمواثيق ، وكانوا إذا انسحبوا ردوا إلى الناس جزيتهم .

ومن ذلك عندما شعر الفاتحون المسلمون بأن الروم تجهزوا فى

الشمال بحملة لا تقوى على صدها الحامية العربية المقيمة فى حمص ، قرروا الانسحاب ، وقبل أن ينسحبوا دعى كبار الأهالى ، ورجال الدين ، وعرض عليهم قائدها أن يأخذوا ما كان قد جبى منهم من أموال الجزية .

قال الأعيان : والله إن الروم لو أنهم جبوا منا الأموال الأميرية واضطروا إلى مثل ما اضطررتم إليه لما أعادوا إلينا ديناراً واحداً مع مابيننا من وحدة الدين . وأن حكومة يكون فيها مثل هذه الرحمة . وهذا الإنصاف لا نرضى بها بديلاً ، ونحن مستعدون لأن ننضم إلى جندكم ، وأن ندفع حملة الروم بكل من يستطيع منا حمل السلاح . ولقد كان الجهاد فى حياة المسلمين عنصراً أساسياً لا ينفك عن هذه الحياة ، فهم يتناوبون الإقامة فى الثغور ، ويواصلون التدرب على الرمى وركوب الخيل وبناء أجسامهم . وقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى . وكانت أمثلتهم وأحاديثهم تدور حول هذه المعانى وتتخذها أسلوباً حتى فى الإيماءات والرموز .

وكان هذا التركيز على فريضة الجهاد عاملاً هاماً فى انتشار المسلمين على هذه الصورة السريعة الواسعة ، وعاملاً أساسياً فى قيام هيبة المسلمين فى أرضهم ، لا يقتحمها عليهم مقتحم ، وكانوا دائماً على الأهبة ، ينفرون خفافاً وثقالاً ، وكانوا دائماً على النية فى الغزو ، وعلى الأمل فى الموت فى ميدان الشهادة . حتى لقد وصف النبي الرهبانية فى الإسلام بأنها الجهاد فى سبيل الله . وقد استتبع ذلك نظام كامل فى التربية والتعليم وبناء الأجيال الشابة على القوة والصمود ، والقدرة على الاحتمال ، والصبر ، وترقب الأحداث ومجابهتها «ولما رأى المؤمنون

الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » . وقد استتبع دخول الجهاد إلى حياة المسلمين قدرة كاملة على فطم النفوس عن الشهوات وبناء الأجساد على أساس القدرة على الجوع والظمأ ، ودون الحاجة إلى الأطعمة المترفة وما يتصل بها من لذائذ . وكانت الأمة كلها وراء الجيش كتيبة مستمرة ، وقد أعانهم على ذلك إيمان بأن الحياة رسالة ، وأنها موجهة إلى الله ، وأنها قصيرة وقد أعانهم على ذلك إيمان بأن الحياة رسالة ، وأنها موجهة إلى الله ، وأنها قصيرة الأمد ، وأن من ورائها حياة أخرى أحفل بالمتاع والخلود ، لمن آثر أن يهب حياته هذه لله سبحانه وتعالى ، ولإخلاص الوجهة لله ، أجاد المسلمون صناعة الموت ولم يهابوه ، بل أحبوه ورغبوا فى لقائه ، وتقدموا إليه بقلوب واثقة بأنه — سبحانه — واهب الحياة ، وكانت فى أعناقهم دائماً بيعة وعهد على الجهاد والاستشهاد ، حتى لا يموتون موتة جاهلية . ولم تكن مقاييس العصر أو حسابات العدو ترهبهم ، فقد كانوا يجعلون من إيمانهم بالله ، وثقتهم بأنهم على الحق عاملا جديداً يضاف إلى قوتهم المادية ، فيضاعفها مهما بلغت قوة العدو المادية التى ليس من ورائها نصر الله وكلمة الحق .

ذلك لأنهم كانوا يفكرون من داخل قيمتهم ومفاهيم القرآن ومنهجه الذى يختلف عن منهج المادية الصرفة ، وكان رسولهم فى مقدمة الركب . وكان قائدهم يتقدم زحوفهم ، وكان خالد بن الوليد يرمى بنفسه على قائد القوم فيقتله ويهزمه فيتفرق أتباعه ، وكانوا إذا وصلوا إلى النصر غضوا أعينهم عن الغنائم . حتى إنهم نقلوا خزائن كسرى وقيصر من ذهب

وكنوز إلى الخليفة فى المدينة دون أن تحدث أحد نفسه بمطمع ، وكانوا كذلك فى العطاء ، حدث الطبرى قال :

لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض . . فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا هل أخذت منه شيئاً ؟ . . قال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً . فقالوا : من أنت . . فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولا أغبركم لتقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس .

* * *

ولم تكن تملأ عيونهم زخارف الدنيا ، ولا تستلفت أفئدتهم ، فقد كانوا يأملون ما عند الله وهو أعظم وأكبر . وقد دخل ربعى بن عامر على رستم أمير الجيوش الفارسية فى مجلسه المزين بالنمارق والزرابى الحرير ، واليواقيت الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب . فاقتحم ربعى مجلسه بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط . ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، فقالوا له : ضع سلاحك . فقال : إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت . ثم أقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق . فقالوا له : ماذا جاء بكم . فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام .

* * *

لقد كانت فريضة الجهاد آية من آيات الإسلام ، وعلامة من علاماته التى أهداها إلى البشرية كلها . فطبعت الإنسانية بطابعها . وقررت للإسلام مبدأ العالمية .

خامساً : قانون النصر

بسم الله الرحمن الرحيم (وما النصر إلا من عند الله)

من خلال نصوص القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ومن تطبيقات المسلمين ، ومن خلال تاريخ الإسلام ومعاركه وفتوحه يستطيع الباحث المسلم أن يستكشف قانون النصر ، وهو قانون يختلف فى العبادة عن قوانين النصر الأخرى . فهو :

أولاً : لا يعتمد على التقديرات المادية وحدها . وإنما يجعل للقوى المعنوية دخلاً كبيرًا .

وهو ثانياً : يقوم على أساس الاعتقاد بأن الحق هو الذى ينتصر على الباطل حتماً .

وهو ثالثاً : يقرر بأنه لابد للحق من قوة تحميه وتدافع عنه .

وهو رابعاً : يفرض عدم الاعتداء أصلاً ، ورد العدوان إذا اعتدى معتد . وفى ضوء هذه الحقائق نجد أن قانون النصر يقوم على أصول عامة أساسية هى : —

١ — إذا ديست أرض الإسلام وجبت النفرة العامة لحماية البيضة ودعى المسلمون إلى الدفاع عن أرضهم ووجب عليهم التماس كل أسباب القوة المادية وحياطتها بدعم الصلة بالله ، وتأكيد عوامل الإيمان والفزع إلى الله عز وجل ، والتضرع فى ساعة اليأس ، فيصبح المجتمع الإسلامى

كله فى حالة تأهب ، ويشترك فى الجهاد المحارب وغير المحارب بالانضمام إلى صفوف المجاهدين أو بتجهيز الغزاة ، أو برعاية أهل الغزاة . (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله)

٢ – حتى لا تداس أرض الإسلام ولا تتعرض للغزو فقد افترض قانون النصر أن يظل المسلمون فى حياتهم على تعبئة فى أهبة الدفاع ، يسدون الثغور ، ويرابطون فى مواقع الخطر ، ولا يغفلون عن أمتعتهم وأسلحتهم لحظة واحدة ، وأن يكونوا واضعى اليد على الزناد ، متخذين أساليب العصر فى الحرب وفى العتاد ، لا يعتدون ولكن يحفظون أنفسهم من العدوان . (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

٣ – إذا واجه العدو المسلمين واجهوه فى قوة وثبتوا فى مواقعهم ثبات المؤمن الصادق على عظم التضحية وكريم الاستشهاد ، وكانوا مثال المؤمن الذى يحارب بيده وبلسانه . فذكر الله فى إبان الحرب قوة جديدة وسلاح جديد أشد فتكاً فى نفوس العدو ، ولقد نصر الله رسوله والمسلمين بالرعب مسيرة شهر ووعد الله سبحانه وتعالى بإلقاء الرعب فى قلوب أعداء المسلمين ، وجعل هذا إضافة كبيرة على السلاح المحارب المادى ، وقوة مخبوءة غالية القيمة يلتمسها المسلمون (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

٤ – على المسلمين لكى يحققوا قانون النصر أن يندفعوا تحت لواء : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ولقد كان المسلمون يحاربون ويعودون منتصرين وفيهم من يملأ نفسه الحزن لأنه لم تكتب له الشهادة

ويسأل الله إياها فى موقع آخر حتى ينالها ، ولقد كان حزن المحارب المنتصر الذى لم يهزم قط (خالد بن الوليد) كبيراً عندما فاجأته الوفاة وهو على فراشه ونعى نفسه حين قال : « أموت على فراشى كما يموت البعير ، وليس فى جسدى مكان إلا وفيه ضربة أو طعنة . وقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ». فالحرص على الموت فى سبيل الله هو القوة التى تهب الحياة والنصر .

٥ — لم يكن المسلمون فى أى زحف من زحوفهم أو أى اشتباك مع عدوهم فى حجمه أبداً من ناحية العدد أو العدة ، وإنما كانوا دائماً أقل من ذلك بنسبة كبيرة ، ولكن هناك قوة أخرى كانت تعوضهم ذلك : هى قوة الإصرار والصمود والثبات والإيمان بأنهم على الحق ، وأن عدوهم على الباطل . ومن هذا الإيمان العميق بنصر الله وتأييده كانت تكتب لهم الغلبة على العدو فى مختلف المواطن .

(الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله) .

٦ — من قانون النصر الجمع بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله دون أن تعلو فى تقديرهم كفة الأسباب المادية على الثقة بالله ، وحتى لا يغروا بها أو يتكئوا عليها . ومثال ذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بدر مقارناً بموقفه فى الغار ، فحيث لم تكن القوة كان تأييد الله حاسماً (إلا تنصروه فقد نصره الله) .

أما ما كان فى بدر فكان رسول الله يدعو ويؤكد معنى الاعتماد على الله دون الاتكال على القوة المادية التى إذا اطمأن إليها المسلم وحدها لم

يتحقق له النصر الذى هو من عطاء الثقة بالله والاعتماد عليه .

٧ – ومن قانون النصر : توقع غدر العدو وتوسعه وجيشانه وتآمره ، والثقة بأن ذلك كله لا يغير شيئاً فى نفوس المؤمنين الواثقين بنصر الله . لأنهم على الحق ولا يرهبهم ولا يخيفهم لأنهم كانوا يتوقعونه أساساً (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) وقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) .

كذلك من وعد الله للمسلمين أن يأخذوا من عدوهم الأسماع والأبصار فلا يراهم ولا يحس بهم إلا وهم فى موقع السيطرة والظفر . وقد تحقق قانون النصر فى مختلف معارك المسلمين وعلى مدى تاريخهم الطويل . ولم يتحقق فى معارك الصدر الأول وحدها ، بل فى كل المعارك ، وتحقق فى معارك الفرنجة والتتار والقوى المغيرة المختلفة على أرض الإسلام وفى إبان حملات الاستعمار الحديثة ، وكانت علامات النصر تتحقق بقدر ما استمسك المسلمون بهذا القانون ، وقد حفظ التاريخ فى مختلف مراحله صوراً باهرة ونماذج غاية فى الصدق والثبات من أولئك الذين أحسنوا (صناعة الموت) فى سبيل الله ، وقدموا أرواحهم رخيصة لا يلتمسون بها إلا ثواب الله . ولا يقصدون إلا وجهه ، هؤلاء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، وهم بذلك لم يحققوا النصر لأنفسهم فحسب ، ولأممهم ، ولكنهم كشفوا للعالم صورة الإسلام الحقيقية وعرفوا به .

ولقد أفاضت كتب الفرنجة عن مواقف صلاح الدين مع جيوش الصليبيين وملوكهم ، وعن تسامحه مع القوم بعد أن فتح بيت المقدس وقد بهرهم هذا كله ولكنهم ردوه أصلاً إلى الإسلام ، ولما عادوا أذاعوا قولتهم هذه فهزت أوربا واستتبعت محاولات كثيرة للحد منها ولكنها بقيت فى بطون التاريخ شاهدة بالحق . ولقد التمس المحاربون المصريون فى معركة عبور رمضان الكبرى أسلوب المسلمين الأول واقتربوا كثيراً من قانون النصر وصدقوا الله عهده ، تحقق لهم الظفر المبين على نفس شروط قانون النصر القرآنى الربانى وأمدهم الله بالمعجزات التى أدالت من خصمهم وحمت قلوبهم ، وكشفت لهم من نور البصيرة ، فعرفوا ، وجهل عدوهم وأنار الله لهم الطريق ، وأظلم أمام عدوهم لأنهم على الحق وقد جاءوا دفاعاً عن النفس والأرض والعرض متمسكين بقول الحق تبارك وتعالى: (أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) . ولقد كانت صيحة الله أكبر تشق لهم الطريق كالشهاب الثاقب ، تلقى الضوء على آخر المدى ، وكانت بسم الله الرحمن الرحيم عاصمة من الزلل ، وكان ثباتهم فى المواقع الحصينة من المعجزات التى تحققت والتى تتحقق دائماً للمؤمنين بالله متى التمسوا طريقه ومنهجه ، ومتى أخذوا بأسباب القوة مع المحافظة على الاعتماد على الله والثقة به ، وهذه هى المرة الأولى منذ ربع قرن كامل يكشف التاريخ صفحة جديدة فيها شبه بصفحتها الأولى وتؤكد للمسلمين أن نصرهم قريب وحاسم ، متى التمسوا قوتهم فى إطار الإيمان بالله ، وكذلك فقد حجب هذا النصر الحاسم ذلك الماضى المظلم ، ومزق ذلك الظلام

٥٧

وكشف الضوء عن وجه الحق ، فانحسر الوهم الزائف الذى أقامه الباطل ، وقد حل اليقين بدلاً من الخوف والإيمان بدلا من الشك ، وجاءت الضربة الأولى حاسمة ، ثم توالت الانتصارات وسوف تتوالى .

الباب الثالث

معطيات الإسلام

١ – الأسلوب الربانى
٢ – الرؤية المؤمنة
٣ – سكينة النفس
٤ – التربية الإسلامية
٥ – تأمين المجتمعات من الانحراف

أولاً : الأسلوب الربانى

لقد كانت البشرية قبل نزول القرآن قد اضطرب بها الطريق بين منهجين :

الأول : منهج السماء الربانى الذى جاء به الرسل ، ونزلت به الكتب المنزلة ، وحمل لواء التوحيد والحق والعدل والتقوى والإيمان بالبعث والجزاء ، وكشف من رسالة الإنسان فى الأرض ومسئوليته وأمانته ، والضوابط التى قررتها الأديان من أجل حماية هذا الإنسان من التحطيم والتدمير .

الثانى : منهج الأرض البشرى الذى شكلته مذاهب وفلسفات ، وحمل لواءه أصحاب النفوذ والسلطان من الأباطرة والفراعنة والقياصرة ، وتابعهم عليه أهل الأهواء والمطامع والرغبات الحسية والمنافع . فقام هذا المنهج من خلال رسالات السماء ، يموت بحياتها ، ويحيا بعد أن تنحسر جولتها ، وقوام هذا المنهج البشرى : الوثنية بديلاً للتوحيد ، والعبودية بديلا للعدل والإخاء . والعنصرية بديلا للوحدة البشرية . وجاءت التفسيرات التى أخضعت نصوص الدين للأهواء والرغائب .

ولقد كانت البشرية منذ يومها الأول موحدة ، ثم اختلطت معها الوثنية والتعدد والأهواء ، وظل التوحيد والوثنية فى صراع لم يتوقف ، كما ظل الحق والباطل فى مواجهة دائمة وتحد مستديم .

فلما جاء القرآن الكريم : كتاب الله الخاتم المستوعب لرسالات السماء كشف عن دين الله ومنهجه فى الفكر والحياة والمجتمع وأبان عن زيف المنهج البشرى مختلف تحدياته وأهوائه ، ووضع الكلمة الأخيرة فى قضية الفكر البشرى .

جاء الإسلام بالأسلوب الكاشف لكل الحقائق الخالدة وأهدى البشرية هذا المنهج الجديد القديم مجدداً مصوغاً فى بيان عربى مبين .

ولقد يسر الله القرآن للذكر حتى تنشأ « أمة » تتعامل بالأسلوب الربانى ، وتعلو به على مختلف الأساليب والمناهج البشرية ، تعلو به أسلوباً فى الأداء ومنهجاً فى الفكر والحياة . فتنشأ تلك الأمة المختارة لحمل الأمانة والتماس بناء مجتمع الله فى الأرض . والتى تؤهل نفسها لتكون قادرة على اجتياز آفاق السماء إلى دار الخلود ، ولقد قدمت لنا تجارب اختراق أجواز الفضاء صورة تقرب إلى الذهن هذه الحقيقة ، إن هذا الإنسان إنما جاء الأرض مؤهلاً لحياة من نوع خاص فى الجنة ، فحياته على الأرض هى عملية إعداد لاختراق أجواز الفضاء ، ولذلك فإن الجموع العامة ليست قادرة على ذلك إلا أن تضع نفسها فى مكان الاستعداد فتفوز طائفة لها إيمانها وصمودها وقدرتها على الفهم والاستيعاب . والممارسة : هذه هى وحدها التى تكون قادرة على أن تنجح فى تجربة تجاوز الأرض إلى جنة عرضها السموات والأرض .

أما الطريق إلى ذلك فهو التماس الأسلوب الربانى والتعايش معه وارتضاؤه أسلوب حياة وعمل وكلام وتعامل مع الناس .

ولما كانت الحياة البشرية قد استشرى فيها اليوم الأسلوب البشرى ، وسيطر على كثير من جوانبها الفكرية والاجتماعية . فإن أمة القرآن هى

المؤملة اليوم فى أن تتخذ من الأسلوب الربانى منهجاً لها ومنطلقاً لتحقق إرادة الله فى الأرض ، ولقد رسم الحق تبارك وتعالى منطلق الأسلوب الربانى فى أكثر من آية محكمة لتكون نبراساً على طريقه وضوءاً كاشفاً على منهجه :

أولاً : فى مجال الفكر ومناهج البحث :

وضع القرآن الحقيقة الأولى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنّ أم الكتاب وأخر متشابهات » وأشار إلى أن الذين فى قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، أما الذين آمنوا فيقولون آمنّا به كل من عند ربنا . تلك دعامة أساسية فى الأسلوب الربانى .

ثانياً : فى مجال الحياة والعمل والمجتمع يضع القرآن قاعدة حاسمة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فساداً » ويقرر المسئولية الفردية « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » وأن وجود الإنسان فى الحياة مهمة أساسية لأداء دوره فى عمارة الأرض ، وامتحانه ، وأنه لا شيء مطلقاً يسمى « صدفة » : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

ثالثاً : أقام الله تبارك وتعالى وحدة الجنس الإنسانى ودحض العنصرية . (اتقوا ربّكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً)

كما أقام وحدة الدين : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

رابعاً : وضع الله حدوداً وضوابط للأمور وأباح فيما عداها كل الطيبات للإنسان وجعل الوجهة فى كل الأمور خالصة لله حتى فى الطعام والمتاع الحسى ، مادام يراد بها أن تكون قوة على طاعة الله . على أن يكون العمل كله خالصاً لله من غير مطمع ، ولا جزاء من الناس . فلا يحكمنا مذهب المنفعة الغريب عنا والذى ليس مذهباً ربانيًّا ، ولكنه مذهب بشرى .

خامساً : إن الإنسان خلق ضعيفاً وأن الذين يتبعون الشهوات يريدونه أن يميل ميلاً عظيماً . ولكن الله يريد أن يخفف عنكم . وفى هذا يضع الله تبارك وتعالى قاعدة التجاوز . فالله سبحانه يغفر للذين يعملون السوء بجهالة ، والذين يتوبون من قريب ، ولا يكلف نفساً إلا وسعها ، ويقبل الاضطرار ، ويؤمن القانطين برحمة الله ، ويدعو الإنسان إلى الأمل به ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وإن مع العسر يسرًا ، وأن الرزق من الله يجرى وفق حكمة غالية : (أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) .

سادساً : صاحب الأسلوب الربانى ملىء بالثقة ، ولا تجتاحه الأعاصير ولا الأهواء التى تمزق النفس وتذهب باللب ، فهو فى مكان الثقة بالله والطمأنينة بعيداً عن الشك والجمود ، لا يعرف الغربة أو الضياع ، يؤمن بأن الحياة امتحان واختبار ، ويتوقع منها كل شىء ، ويؤمن بأن الموت حق ، فلا يفزع له أو منه ،ويعطيه هذا الثقة بالله : (ألا بذكر الله

تطمئن القلوب) القدرة على مواجهة النوازل والأحداث والأزمات التى هى ليست غريبة ولا مفاجئة ، فهى من طبيعة الحياة .

والإيمان بالموت والثقة بأنه نهاية كل حى تجعل الإنسان فى يقين فلا ينزعج ولا تذهب نفسه بددًا ، ثم إنه بما هو أبعد من ذلك ، يثق بالبعث والنشور ، والحساب والجزاء ، وهو بذلك فى أمن من أخطار المذاهب الهدامة التى تغتال البشرية اليوم .

سابعاً : منهج المعرفة قائم على أساس الإيمان بالله والوحى والغيب والبعث والمسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاقى ، وهو منهج متكامل فيه العقل والقلب معاً ، وليس فيه العقل البارد الفلسفى ، ولا حماسة الانفعال الحار ، وإنما اليقين مع حرارة الإيمان وثقة العقل ، ليس فيه الاندفاع ولا الجمود . بل فيه الممارسة مع الطمأنينة .

ثامنا : إقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساساً للمنهج الربانى وأسلوباً للحياة ، فالمسلمون مسئولون عن بعضهم البعض يتناصحون . والنصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم ، وهى منبثقة من مصدر أكبر قوة وأشد عمقاً ، هو الإيمان بالمفاصلة التى أقامها الله سبحانه وتعالى بينه وبين الناس جميعا : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) .

هذه هى المفاصلة بين منهج القرآن ومنهج المعرفة . ذلك أن الله يريد أن يرفع الإنسان بآياته ، ويريد الإنسان بأهوائه أن يخلد إلى الأرض ، ويجعله قادراً على المرور بالتجربة الكبرى ، وليكون أهلاً للحياة الخالدة

فى الجنة ، ومن هنا فإن الإنسان فى المنهج الربانى لا يقبل أن يحمد على مالم يفعل ، ولا يزكى نفسه ، ولا يستعلى على الناس بالذكاء أو الجاه أو المال ، ولا يفخر بالآباءوالأنساب فكلكم من آدم وآدم من تراب .

تاسعا : إن الأسلوب الربانى كذّب قول القائلين بأن البشرية قد ارتقت ولم تعد فى حاجة إلى وصاية السماء ، فلا يزال الإنسان يندفع بقوة العلم والحضارة والمنجزات الحربية إلى السيطرة والبغى والإذلال لبنى الإنسان

ويكذب الأسلوب الربانى قول القائلين : بأن من حق الناس أن يضعوا قوانين حياتهم ، فقد عجزوا عن أن يجدوا أسلوبا يهدى قلوبهم أو أيدلوجية تقيم العدل والسلام والرحمة .

ويكذب الأسلوب الربانى دعوة القائلين بأن الأخلاق نسبية ، وأنها تختلف حسب العصر والبيئة . فإن الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان ، وأن الأخلاق مرتبطة به أولاً وآخراً . وأن الأخلاق ثابتة لأنها من معطيات السماء . أما التقاليد فهى متغيرة لأنها من عمل الإنسان ، وفارق عميق بين الأخلاق ، وهى ربانية ، وبين التقاليد والعادات وهى بشرية .

ويكذب الأسلوب الربانى دعوة القائلين بأن الحياة الدنيا هى نهاية المطاف ، ذلك لأن الفطرة والعقل والعلم جميعا لا يستطيع أن يقبل حياة بلا هدف ولا مسئولية (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

ويكذب الأسلوب الربانى الشبهة القائلة بأن الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات فقط ويدحض هذا قوله تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) فهو يعلم دقائق الأمور وعظائمها جميعاً .

ويكذب الأسلوب الربانى فكرة المحاكاة فى الفن ويسقطها إسقاطاً . فالله هو خالق الكون وليس من سبيل للفن إلا أن يخضع لعظمة الله (الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .

ويكذب نظرية المحاكاة فى البيان ، فقد عجز الناس وستعجزون عن أن تصلوا إلى بلاغة القرآن وإعجازه البيانى والمعنوى جميعا . (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) .

عاشراً : إن الأسلوب الربانى يقدم تجربة التاريخ ويقدم قوانين الكون ، ونواميس الحياة ، ويقدم عبرة المجتمعات والأمم ، ويقدم تاريخاً باذخاً لجهاد الأنبياء والرسل فى سبيل ترقية البشرية ، وبناء المنهج الربانى بالتوحيد وكلمة الحق ، ويكشف عن عالم ضم حشداً من المؤمنين الذين جاهدوا وامتحنوا وصمدوا للأحداث فى مواجهة الوثنية والعبودية معا .

حادى عشر : أخذ الله الميثاق على أهل العلم أن يبينوه للناس ولا يكتمونه ، وحدد المسئولية الفردية فلا يؤخذ أحد بجريرة أب أو جد ، أو خطيئة سابق أو لاحق (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

ثانى عشر : يقرر الأسلوب الربانى : الإيمان بعالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة معاً . (ويطلق عليهما عالم الغيب والشهادة) ويدعونا إلى التفكر فى كتاب الله الناطق وهو القرآن وكتاب الله الصامت وهو الطبيعة .

ثالث عشر : ويحذرنا الأسلوب الربانى من خطر التقليد

وخطر التبعية وخطر التأويل وخطر قبول الرأى بلا برهان ، ويقرر مسئولية السمع والبصر (ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم) .

ويدعونا إلى الاعتصام به ، وأن لا نتخذ بطانة من دوننا ، ويحذر من الغرض القريب فى سبيل حماية الغرض الأسمى . (أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) .

ويحذر من الهوى ، هوى النفس ، وهوى العصبية والجنس ، وهوى التعصب بالرأى أو الموروث . (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) .

ويدعونا إلى أن لا تصرفنا معرفة النواميس وقوانين الكون إلى نسيان صاحب الكون وصانع النواميس والقوانين ، القادر على إبطالها وخرقها ، وحتى لا نسرف فنرى أنفسنا وكأننا نحن الذين صنعنا وفعلنا (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . وحتى لا نستعلى بالغنى ولا بالقوة ولا بالمجد . فإذا خول نعمة من الله قال إنما أوتيته على علم .

رابع عشر : كشف الأسلوب الربانى عن مفهوم البطولة : مستعلياً فوق الأوثان والتماثيل . فالإسلام يكرم العمل ولا يقدس الفرد حتى لا يسقط المسلمون فى محنة عبادة البطولة ، ويفرق بين الألوهية والنبوة ، وبين النبوة والبطولة ، ويجعل إنكار البطولة من أعظم الأعمال ، وقد سجل تاريخ الإسلام صوراً كثيرة من هذا الاتجاه مثل صاحب النقب وغيره ممن رفضوا أن يفصحوا عن أسمائهم بعد أن قاموا بالأعمال الجلى وتركوا ثوابهم وجزاءهم لله وحده .

خامس عشر : قرر الأسلوب الربانى حقائق الفطرة : وجعل الأسرة

من حقائق الفطرة وأقامها بناءً أصيلًا ، وكرم المرأة وحماها من أن تكون وسيلة لاستغلال الرجل فى مطامحه وأهوائه . وجعل الجنس حقيقة مفتوحة ليس فيها أزمة لأن الإسلام يعترف بالرغبات الجنسية ويدعو إلى تحقيقها فى إطار الزواج وبناء الأسرة .

سادس عشر : الأسلوب الربانى يقرر أن الدنيا ليست رواية هزلية ، وإنما هى حقيقة قائمة ، ويفرق بين المفهوم الربانى للأمور ومفهوم القصص والروايات ، ويفرق بين لغة ولغة فى الفكر ، ويفرق بين تقاليد أمة وأخلاقها ، وتقاليد أمة أخرى ، ويبطل التقليد فى الزى والملبس وأسلوب الحياة ، وينكر العرى وعبادة الجسد وعشق الحياة .

ويدعو إلى الغيرة على الشرف وحفظ العرض ورعاية الأبوة والأمومة مهما بلغ الخلاف معها فى الفكر أو المنهج أو الوجهة .

ودعا إلى الحفاظ على تجربة السابقين والانتفاع بها ، وإقامة العلاقة بين الأجيال على المودة مهما كان اختلاف مفاهيم الحياة .

وأنكر الآراء التى تقول بحرية التربية ورفع التوجيه عن الشباب والأجيال ، ودعا إلى تبادل الخبرة بالموعظة الحسنة بين الأب والابن والقديم والجديد والسابق واللاحق ، ودعا إلى المحافظة على ميراث التجربة .

* * *

تلك علامات سريعة خاطفة للأسلوب الربانى فى مواجهة التجربة الضخمة التى يخوضها الإنسان فى الأرض لأجل وأجل مسمى عنده بين الموت والبعث وسوف يخوض التجربة وينجح فيها من التمس هذا الأسلوب الربانى ، وفهم الدنيا فهماً صحيحاً وفهم موقعه منها ورسالته فيها .

فهمها على أنها دار ممر بالعمل الموجه إلى الله ، ولمن فهم أن لوجوده فيها مسئولية ورسالة واختباراً كبيراً . ولمن فهم أن ما يملكه فى الدنيا ليس للاكتناز ، ولكن للإنفاق فى سبيل الله . ولمن فهم أن عطاء الله ليس إلا استخلافاً وأمانة ولمن فهم أنه عابر سبيل . ولمن فهم أن الحياة ليست إلا محطة انتظار من الوصول والقيام مع كل مقدراتها فى المتاع الحق بها ، والعمل حتى آخر اللحظات على نحو ما أشار الرسول : « إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها » يعمل الإنسان لدنياه كأنما يعيش أبداً . ولآخرته كأنه يموت غداً .

اللهم علمنا طريقك ومنهجك وأسلوبك واجعلنا ربانيين قرآنيين .

ثانياً : الرؤية المؤمنة

من أعظم معطيات الإسلام الخالدة الباقية على الزمن : « الرؤية المؤمنة » . وهى الرؤية التى تستمد كيانها كله من كتاب الله ، وتكامل الإسلام ونظرته الجامعة الواسعة الأفق ، الممتدة الأبعاد ، الواعية الفاحصة .

وقد طرح الإسلام هذه النظرة فى عالم كان يعرف من قبل نظرتين : النظرة الساذجة والنظرة الماكرة ، وكلاهما بعيد عن الفطرة الإنسانية ، معارض للعلم والعقل ، مضاد للإنسانية التى هى طابع النظرة المؤمنة ، مخالف للربانية الذى هو منطلق البشرية الحقيق .

فإذا كانت هناك فى العالم الآن رؤية ساذجة فهى ليست نظرة الإسلام ، وإنما هى نتاج التخلف والانحراف عن النظرة الأصيلة الصادقة .

ولا تحسب أخطاء هذه النظرة الساذجة على الإسلام وإن كانت من تصرفات بعض المسلمين ، وإنما هى نتاج التخلى عن قيم الإسلام الصامدة المضيئة التى لا يتعرض المستمسكون بها إلى تخلف ، أو غزو ، أو ضعف ، أو سيطرة خارجية أياً كان نوعها .

أما الرؤية الماكرة فهى تلك النظرة التلمودية التى طرحها الفكر اليهودى على الإنسانية منذ قرون طويلة ، وما زال يجددها جيلاً بعد جيل ، ليصرف الناس عن وجهة الحق ، وعن نور التوحيد ، وعن ضوء القرآن .

إن هذه النظرة الماكرة هى التى تحاول أن تبث فى عقول المسلمين العرب أنهم لكى يحققوا انتصارهم فى مجال التكنولوجيا والعلم لابد أن يتخلوا عن القيم والعقائد ، وهم الذين يحاولون أن يثيروا تضارباً وتضاداً بين العقائد الربانية الصادقة الصافية ، هبة السماء إلى الأرض وبين التمسك بها من ناحية وبين الانطلاق فى مجال القوة المادية .

هذه الشبهة من التعارض باطلة لا ريب فى بطلانها . ذلك أن المسلمين كانوا على مدى التاريخ يمسكون بالقوتين : الروحية والمادية ، ويخضعون القوة المادية للقيم الروحية وكانوا بذلك يقيمون مجتمع الحق والعدل والإخاء الإنسانى .

وهم فى يومهم مثلهم فى أمسهم . لن يتحقق لهم نصر على عدو . أو حضارة أو نهضة إلا إذا استمسكوا بهذا القانون الجامع بين القوتين معاً .

فإذا جاء من يقول لهم غير ذلك فإنما هو من أصحاب الرؤية الماكرة ، لا ريب كذلك . فإن الأمم ذات التاريخ الطويل المجيد . والعقيدة الراسخة العميقة الجذور تعرف أن ما يقدم لها من منجزات الحضارة أو معطيات المدنية ، إنما هو بمثابة مواد خام لا طعم لها ولا لون ولا رائحة . وهى تشكلها كيفما تشاء ، وتستعمل منها ما تشاء . وليس مفروضاً عليها مطلقاً — كما أنه ليس مفروضاً على أية أمة تلتمس من نتاج الحضارة العالمية شيئاً ليس مفروضاً عليها أن تأخذ معه فكر أمة أخرى أو عقائدها . أو أيدلوجيتها . وإنما يلتمس المسلمون اليوم الجوانب المادية من الحضارة ليضعوها فى إطار فكرهم وفى دائرة عقائدهم ، ليشكلوا بها نهضة جديدة للحضارة الإسلامية العربية .

ولن يستطيع أحد أن يفرض عليهم غير ذلك . ولن يستطيع متحدث مهما بلغ من قوة البيان أن يدلل على أن الحضارة المادية حين تنقل لابد أن ينقل معها فكر الأمم التى صنعتها .

ولا ريب أن الإلحاح على هذا المعنى الواضح الزيف . إنما هو مما يدخل تحت عنوان النظرة الساذجة .

كذلك لماذا يفترض حينما يدعو المسلمون إلى الشريعة الإسلامية وإلى النظرة الإسلامية فى أمور الحياة والمجتمع أن ذلك من شأنه أن يعيد الناس إلى عصر الجمال والصحراء .

إن الفكر الإسلامى يفرق بوضوح بين امتلاك أدوات الحضارة المادية وبين استعمالها . ذلك أن العلم التكنولوجى هو ثمرة العلم التجريبي الذى قدمه المسلمون للبشرية ، ولذلك فهم مساهمون فى بنائه ، مشاركون فى إنمائه ، وهم اليوم حين ينقلونه إلى محيطهم وإلى لغتهم إنما يوجدون روح العلم ، فإن الفكر الإسلامى له مفاهيمه الخاصة فى استعمال العلم وفى صياغته ، فهو يجعله خالصاً لله ، مبرأ من الظلم ، عادلاً شاملاً للبشرية كلها ، لا يعرض به الحياة للأخطار ، وإنما يؤدى بها إلى الأمن .

فالعلم فى مفهوم الإسلام من أجل الأخوة الإنسانية والتقدم بمفهومه الجامع (معنوياً ومادياً) وهو مكفول بأمانة الله ووجهته إلى الخير والسلام .

كذلك فإن موقف الإسلام من الحضارة له ضوابطه وله ذاتيته الخاصة .

والنفس الإنسانية العربية الإسلامية هنا لها فنها وأدبها وشعرها المرتبط بالنفس والروح والعقائد والقيم والأخلاق .

ولذلك فإننا لا نقبل ولو قبلنا لما استطعنا أن نكون غير أنفسنا بطابعها الذى صنعه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، والذى تحميه الأجيال من أن يذوب أو يحتوى أو يتلاشى أو يفرض عليه ما ليس منه .

إن للمسلمين رؤية كاملة فى مجال النفس والشعر والفن تختلف لأنها تستمد أصولها من طبيعة وبيئة وعقيدة ليست متماثلة مع الأمم الأخرى ، وإن كانت تلتقى معها فى جوانب أخرى .

ولذلك فإن ما يقدم من نظريات فى النفس والأخلاق والاجتماع فى بيئة من البيئات فإنما هو نتاجها وردّ فعل تحديات هذه البيئة وعنوان ذاتيتها ، ولقد غشى الفكر البشرى فى السنوات الأخيرة طابع خطير من الفكر التلمودى الصهيونى يحاول أن يضع العرب والمسلمين فى منطقة الاحتواء وفى إطار التغريب والغزو الثقافى ، حتى تضعف مقومات هذه الأمة وعقائدها التى كانت ولا تزال قادرة على ردّ العدوان ودفع الظلم ومقاومة الباطل .

والمسلمون يعرفون كيف يفرقون بين العلوم والفلسفات ، وبين الحقائق والنظريات وبين الواقع والفروض ، وبين التجارب الصائبة وتلك التى عجزت عن تحقيق شىء .

وهم واعون للزيف وللكلمات البراقة التى تصاغ فى إطار الحرب النفسية التى توجه إليهم وتحاول أن تسيطر عليهم .

ولذلك فإن الرؤية المؤمنة هى ذلك الإطار العظيم الذى يتحرك فيه الفكر الإسلامى فى عقيدته القائمة على الإيمان بالله وتوحيده ، وعلى ثبات

القيم الأساسية ، وعلى المسئولية الفردية النابعة من الإرادة الحرة ، وعلى الجزاء الأخروى والالتزام الأخلاقى .

والنظرة الإسلامية دائماً نظرة متكاملة جامعة ترتبط فيها الروح بالمادة والعقل بالقلب والدنيا بالآخرة . وهى نظرة تؤمن بأن عالم الغيب حق واقع ، وأن الفصل بين الماديات والروحيات من شأنه أن يفتك بالنفس الإنسانية ويوقعها فى أزمات الانحلال والضياع وأن ذلك التكامل الذى عرفه الإسلام وأهداه للبشرية هو النور للعين والسكينة للقلب ، وهو ضياء الدنيا ونعيم الآخرة .

ثالثا : سكينة النفس

على قدر ما أعطت المدنيات والحضارات من ترف ورفاهية ومتاع مادى عن طريق تقدم العلوم والاختراعات فإنها عجزت أن تقدم للإنسان أمله الوحيد فى الحياة ، ومطمعه الأكبر منها الذى يستطيع به أن يستوعب كل رفاهية ومتاع مادى : ذلك هو سكينة النفس وطمأنينة القلب ، ويرجع هذا العجز إلى قصور المفاهيم الفكرية ، والمذاهب الفلسفية عن استيعاب عقيدة الإيمان بالله وما يتصل بها من إيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء ، وما يترتب على مسئولية الإنسان فى الحياة والتزامه الصادر من إرادته الحرة التى هى موضع محاسبته ومسئوليته . ومن هنا تعالت صيحات التمزق والقلق والغربة والرفض وانقسام الشخصية ، وليس شىء يستطيع أن يحرر النفس الإنسانية من هذه الأدواء إلا الإيمان بالله « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وليس هناك مفهوم واضح جامع صريح يشفى النفس فى هذا المجال أبلغ من المفهوم الذى قدمه الإسلام وفصله القرآن وأهداه الرحمن للبشرية كلها وهو العليم بما يعرض لها من شبهات وأزمات .

إن الإسلام قد حرر حقيقة الإنسان منذ أول الأمر على أنه كيان متكامل جامع : روح وعقل ، وجسد ونفس . ومن هنا فقد نظر إليه من خلال هذه الطبيعة الأصيلة الجامعة وعامله بوصفه كياناً متكاملاً فأقر له

رغباته المادية كلها وأباحها له دون أن يحرمها . وإن كان قد وضع له إطاراً تتحرك فيه ، وضوابط قصد بها حماية الإنسان نفسه من الانهيار والتدمير .

واعترف الإسلام إلى جانب ذلك بأشواق الإنسان الروحية والنفسية والفكرية وجعل جانبه المادى وجانبه الروحى يتكاملان ويتوازيان .

والحقيقة الثالثة فى مفهوم الإنسان فى الإسلام هو مسئوليته كإنسان فى الحياة ودوره منها وعمله وإرادته الحرة المطلقة داخل إرادة الله من أجل البناء والإنشاء وتعمير الكون ، وجعل تلك الضوابط التى أقامها على رغباته عاملاً هاماً فى حماية كيانه من أجل أداء مسئوليته فى الحياة . ومن ثم يكون قادراً على مواجهة التحديات والأخطار دون أن يضعف أو يتحطم . وكذلك فقد جعل سعيه فى الحياة مرتبطاً بالجزاء فى الآخرة .

وكذلك أعطى الإسلام : الإنسان بمفهومه الصحيح دون أن يرفعه عن مستواه إلى التقديس والعبادة ، ودون أن يخفضه عن مكانته إلى وصفه بالحيوانية ، أو الخضوع فى تصرفاته لمطالب العيش ، أو رغبات الحس على النحو الذى تصوره به الفلسفات والعلوم الاجتماعية الحديثة .

والحقيقة الثالثة : هى أن علم الإنسان حقيقة مكانه من الله سبحانه ، ومن الكون ومن عالم الغيب ، ومن الحياة جميعاً فكشف له ذلك فى القرآن بأوضح بيان ، وقرر فى وضوح أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون وصاحبه ومدبره .

وهو الذى يمسك هذا النظام المترابط فى كل لحظة ، وأنه مصرف الأمر كله عطاءً ومنعاً ، وإليه يرد الأمر كله .

ومن هنا فقد فتح الإسلام للإنسان آفاقاً واسعة للعمل ، فيه مسئوليته

الفردية والتزامه الخلقى ، وفيه فضل الله ورحمته ، معطياً ومانعاً ، وفى كل الحالات رحيم يغفر الذنب ويقبل التوب ، ولا يكلف نفساً إلا وسعها « فاتقوا الله ما استطعتم » وليس على الإنسان جناح فيما أخطأ به ، ولكن ما تعمد قلبه .

والإسلام حين يقرر هذا كله إنما يفتح للإنسان طريقاً مطمئناً إلى سكينة القلب وطمأنينة النفس التى لا تتأتى إلا من الاعتصام بالله وحده . فقد قرر الإسلام أن الإيمان بالله قوة دافعة تعطى الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة المتجددة ، وتحرض على المعاودة فى حالة الإخفاق ، وليس الإيمان مضاداً للمعرفة . بل هو ظهيرها . فالإسلام لا يقف عند مفهوم المعرفة القائمة . الحس والتجربة وحدهما ، بل تضيف إليه علماً آخر هو ما جاء به الوحى وسجله القرآن ، وفيه تفصيل عالم الغيب وعالم الآخرة ، وقد جعل الإسلام الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط المعرفة .

كذلك يقرر الإسلام « التفكير » فى خلق الله ، والتأمل فى صنع الله ، ويجعل ذلك فريضة : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » بل إن الإسلام يقرر أن الغفلة ذنب ، وأن عدم التفكير معصية ، وأن البلادة الذهنية لها عقوبة : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم » .

ويدعو الإسلام الإنسان إلى حياة وسطى : حياة بعيدة عن تعقيدات الترف وتكاليفه وآثاره الخطيرة التى تقضى على قدرة الإنسان على المقاومة وتفسد طبيعته المدفوعة إلى العمل ، ذلك : أن الرفاهية والترف من أخطر المعاول فى بناء الأمم . فهى تقضى على إرادة المقاومة وتقضى على رغبة

العطاء والإنفاق فى سبيل الله ، وتحول بين الإنسان وبين الرحمة والإحسان وتدفع إلى الطغيان والاستعلاء ، وتحجب عن المسئولية الأخلاقية كلها . ولذلك فقد ربط القرآن بين الترف وبين إنكار البعث والجزاء . ولقد صدقت الأبحاث الاجتماعية الحديثة مفهوم القرآن وكشفت عن مدى الخطر الذى تواجهه الأمم حين تصل إلى مرحلة الترف والرفاهية ، وفى أحـد هذه الأبحاث مما نشر أخيراً يكشف الترف والرفاهية عن أمراض عصبية ونفسية يجتاح ٢٥ فى المائة من السكان وأناس يتركون العمل قبل سن المعاش بمعدل ٤٠ فى المائة وفتيات يقدمن على الانتحار بمعدل ١٢ فى المائة لكل مائة ألف .

ويقول علماء الاجتماع إن هذا التقرير يدعو إلى الذهول . لأن هذه البلاد من أغنى بلاد العالم . ثم يصل الباحثون إلى هذه النتيجة الخطيرة : « إن دول الرفاهية لا تزيد من سعادة الفرد كما هو متوقع ، وإنما تضعف شخصيته وإحساسه بالمسئولية مما ينتج عنه خلق شخصية متحللة » .

نعم : لقد أعطت الحضارة ما عندها من ثروة ومتعة ، ولكنها عجزت عن أن تعطى النفوس حاجتها إلى السكينة والرضا والطمأنينة التى تحول بينها وبين تدمير نفسها بالمخدرات أو المغيبات وتدفعها إلى الانتحار ، أو تجعلها تسقط فى هاوية الأمراض العصبية والنفسية التى لم تعد تحدث نتيجة الكبت كما توهم بعض علماء النفس ، ولكنها جاءت نتيجة الإسراف والإندفاع دون ضوابط أو قيود .

إن الاسلام الذى أعلن أنه لا يوجد صراع بين الجسم والروح قد حرر أتباعه من الأخطار المترتبة على هذا الفصل فأسقط مفهوم العزلة

والزهادة فى متاع الحياة كما أسقط مفهوم الإسراف والإباحية . ولقد آمن الإسلام بالروح والجسد معاً ، ونظر إلى الإنسان نظرة متكاملة وكرمهما معاً ودعا إلى الاهتمام بهما طهارة ونظافة وزينة من غير سرف ولا خيلاء .

وكذلك أعلن الإسلام مفهوم المجاهدة والكظم وجعله من قمم الإيمان ، وجعل المجاهدة بمعنى السير ضد تيار الأهواء والمطامع والرغبات المذلة ، وبمعنى تأجيل الرغبة بعد الاعتراف بها . هذه المجاهدة لا تقع تحت خطر التهويل الوهمى الذى تدعيه بعض النظريات عن خطر الكبت ذلك أن المجاهدة غير الكبت ، إن الكبت إنما يستمد معناه من إنكار الرغبات أساساً واحتقارها وعدم الاعتراف بها وخاصة فى العلاقة بين الرجل والمرأة . وهذا ما لا يدخل مطلقاً فى إطار مفهوم الإسلام أو مجتمع الإسلام الذى يقوم على أساس الاعتراف بالرغبات النفسية والحسية والجنسية اعترافاً كاملاً دون إنكار لها ، بل فى دعوة إلى تحقيقها وممارستها فى إطارها الصحيح ، ووفق ضوابطها الصائبة ، ويسمح الإسلام بعد الاعتراف الذى يملأ النفس طمأنينة إلى هذه الدوافع ، يسمح بالتأجيل والتأخير والإعلاء حتى تتحقق القدرة المادية ، والظرف المناسب ، ومن هنا فالمسلم لا يقع مطلقاً تحت تأثير ما يسمى « غول الكبت » المتسلط لأن العصاب الذى يهدد به بعض النفسانيين لا يقع إلا نتيجة الأنظار والاحتقار ، أما الاعتراف مع التأجيل فذلك مما تقبله الطبيعة البشرية وترضاه .

ولقد هللت طويلاً دعوات التربية الحديثة بأن توجيه الأطفال وعقابهم يؤدى إلى كذا وكذا من الأمراض . ثم أثبتت التجارب الميدانية التى

أجريت على ذلك ، أن ذلك محض وهم وافتراض ، وأن النفس الإنسانية قابلة للتوجيه والتحذير والعقوبة دون أن يحدث ذلك عندها ما يسمى بمركبات النقص أو غيره .

ونحن نؤمن أن صانع النفس الإنسانية هو أقدر على فهمها وهو الحامى لها والحارس وأن ما رسمه لها من مناهج وأساليب تحذير وترغيب وترهيب إنما هو من وسعها وأنه متقبل منها وليس بشاق عليها ولا خطر ، وليس له ضرر على النحو الذى تهول له الفلسفات . ولكن الخطر الذى تكشف عنه كل يوم تجارب العلماء والباحثين هو فى الإباحية المطلقة والتحلل الكامل من الضوابط والحدود عن طريق غرور الإنسان واستعلائه وظنه أنه قد بلغ الرشد فلم يعد يقبل وصاية الأديان أو محرمات الأخلاق .

ونحن نعرف الهدف من إثارة مثل هذه الفلسفات وطرحها فى أفق الفكر الإسلامى فإنها تستهدف تفكيك عروة الشباب منذ الطفولة وبناء أجيال متحللة مدمرة ، ورفع يد الآباء عن التوجيه وتقديم التجربة ، وخلق شىء من الكراهية بين أفراد الأسرة حتى تفقد الأسرة مكانتها الحقة ، ويفقد الشباب ثمرة التجربة والعبرة . ومن ثم تصل المجتمعات الإسلامية يوماً إلى مثل هذا التحلل والفساد الذى وصفته تقارير الباحثين .

ولقد أعطى الإسلام المسلمين بلسم الجروح وشفاء الصدور وسكينة النفس وأصالة الفهم حتى يحميهم من أخطار التدمير « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » وصدق الله العظيم .

إن الدين هو سلاح المواجهة الحقة فى وجه مركبات الخوف والقلق

٨٢

والتمزق ، إن الدين الحق هو الذى يستطيع أن يرد النفوس إلى السكينة والطمأنينة ويدفع عنها أزمة انفصام الشخصية وأخطار الأمراض العصبية والانتحار والتدمير .

رابعاً : التربية الإسلامية

أبرز معالم منهج التربية فى الإسلام أنه :

أولاً : منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل جميعاً بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التى تكون فى مجموعها « الشخصية » الإنسانية .

وذلك حتى لا تطغى ناحية من هذه النواحى بالاستعلاء ، فتفقد النواحى الأخرى حاجتها . وبذلك يحدث « التمزق » الذى هو أخطر آفات التكامل الإنسانى ومصدر كل الأزمات التى تواجهها البشرية حين أعلت من شأن العقل أو الجسم وحده وتجاهلت تكامل العناصر وترابطها . وقد أشاد الإمام الغزالى فى المقاصد إلى مفهوم التكامل فقال : أن تمترج العناصر بحيث يفعل بعضها فى بعض فتتغير كيفيتها حتى تستقر للكل كيفية متشابهة ويسمى ذلك الاستقرار امتراجاً . وذلك أن يكسر الحاد من برودة البارد والبارد من برودة الحاد وكذلك الرطب واليابس حتى تصير الكيفيات المحسوسة متشابهة لتعادلها بالتفاعل .

ثانياً : وحدة الاتجاه أو وحدة الفكر بمعنى أن تصوغ قاعدة عامة للنفس الإنسانية تلتقى فيها الأمة كلها على أرض الواقع ، ولا يمنع هذا من الاختلاف فى الفروع ، ولا ريب أن الصلاة والصوم والزكاة وغيرها من العبادات تمثل هذه الوحدة ، وتعمل على صياغة أصل فكرى عام .

ثالثاً : يرى الإسلام أن الإنسان يولد فيه عاملا الخير والشر ، والتربية بمعنى « التزكية » هى التى توجهه إلى الطريق الصحيح . (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ، ومن هنا يتحتم بناء الفرد وتوجيهه ودفعه إلى الطريق الصحيح ببناء إرادته ودفعه إلى تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والانفصام عن الشهوات .

رابعاً : جعل الإسلام : التربية : منهجاً وقدوة ، وجعل المنهج تطبيقاً فى القدوة (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) . والقدوة تتمثل فى الأبوين ثم فى المعلم ثم فى المعارف والأصدقاء ، فإذا لم يتحقق فى هذه النماذج عجزت التعاليم والمناهج أن تقدم شيئاً ذا بال لأنها تظل قائمة فى حدود النظرية المجردة .

ويقول المربون إن الطفل يتقبل من آبائه أكثر مما يتقبل من معلميه ، وإن ناشئ الفتيان فينا ينشأ على ما كان عوده أبوه .

ومن هنا تأتى مسئولية الآباء وما يرتكبه البعض فى حق أبنائه من تقصير فى التوجيه والمتابعة يوماً بعد يوم .

خامساً : الطبيعة الإنسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهى أساس بناء الأمم والمجتمعات . ويمكن عن طريقها « تغيير العرف العام » ولذلك فقد عمد إليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة ، ولابد من إعداد البيئة الصالحة للتربية الحقة التى تقوم على أساس التقاء المناهج بالواقع والتى لا يوجد تناقض بين ما يعلن ويقدم من آداب وسلوك وتاريخ وبين الواقع نفسه .

سادساً : أهمية دور الأم البالغ الأثر فى إمداد الأبناء بالحنان والرحمة

والحب والعاطفة . ومدى خطر نقصان ذلك وتلاشيه . فإن ذلك التقصير من شأنه أن يخرج أجيالاً ممزقة ينقصها الوجدان وتحس بالغربة لما نقص منها فى الصغر ، وتلك حكمة الإسلام البالغة فى تأكيد دور الأم وجعلها دعامة الأسرة .

سابعاً : الحرص على كمال الذاتية والطابع والنوع . فالأبناء لابد أن تكون لهم تربية خاصة وزى خاص ومنطلق خاص يفهم الحياة ويتعلم أمورها ، تختلف عن تعليم الفتيات وملابسهن ومنطلقهن . وأنه من الخطر امتزاج ذلك لأنه يفسد الفوارق العميقة بين شخصية الابن وشخصية الفتاة .

ثامناً : إقامة أساس التأديب على الترهيب والترغيب معاً على طريقة الحزم الممزوج بالرفق والربط بين الإيناس والإيحاش على أن لا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك سره . ولا سيما إذا ستره الصبى واجتهد فى إخفائه . على أن يباح للطفل أن يلعب لعباً جميلاً بعد انصرافه من المكتب حتى تذهب عنه آثار التعب والملل . وكذلك إعطاء الأبناء الفرصة فى إبداء رأيهم ، والعمل على تأكيد ذاتهم وتشجيع اتجاهاتهم الطيبة .

تاسعاً : تعليم الأبناء وتربيتهم على الرجولة والخشونة : « علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم ليثبوا على الخيل وثباً ورووهم ما يجمل من الشعر » ولقد كانت وصية الرشيد إلى مؤدب الأمين قوله : « أقرئه القرآن وعرفه الآثار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم منها فائدة يعينك إياها من غير أن تحزق به فتميت همته ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى

الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة . فإن أبا هما فعليك بالشدة والغلظة ».

عاشراً : القرآن هو مكون الفكر واللسان والقلب فى كيان كل مسلم ، فهو المصدر الأول للعلم والتربية والخلق ، ومن شأنه أن يثنى قدرة البيان ويعطى مفهوم التوحيد والإيمان ، وعمل القرآن الأول فى تربية النفس هو ردها إلى الفطرة وتخليصها مما علق بها من أوضار الوراثة والبيئة ، وخرافات العرف والتقاليد .

حادى عشر : قدم لنا القرآن منهجاً كاملاً لمعرفة العوالم المحيطة بنا : عالم الطبيعة ، وعالم الغيب ، ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا ودورنا فى هذه الحياة ، وعما بعد الموت وما يتصل بالبعث ويوم القيامة والجزاء بما يرضى النفوس الحائرة ، ويشفى الصدور القلقة ، ويقيم الإنسان المسلم على الطريق المضىء الذى لا يحتاج معه إلى سؤال أو إلى تساؤل .

ثانى عشر : منحنا القرآن فهم دورنا الحقيقى فى هذه الحياة : رسالة ومسئولية وإرادة حرة وجزاءً ، وكشف لنا عن الطريقين ، ودعانا إلى الصراط المستقيم . الذى هو صراط الله . ثم ترك لنا حرية أعمالنا . وذلك على نحو لم يتحقق لأى منهج تربوى بشرى فلم يجعلنا فى حاجة إلى استيراد المناهج أو الأساليب بعد تحديد « الهدف » و « الغاية » وإتاحة الفرصة لنا على مدى العصور واختلاف البيئات فى اتخاذ (الأسلوب) المناسب للعصر .

وفى هذا كله جعل وجهة الإنسان المسلم هى الله ، وجعل منطلقه

جزاءه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً » .

ثالث عشر : جعل الإسلام العبادات علامة الاتصال الدائم بالمصدر الأكبر وجعل ممارستها فى أوقات معينة مرتبطة ببناء الإرادة وتأهيل النفس الإنسانية لقطع استمرار أى عمل دنيوى فى سبيل الغاية الربانية ، وجعل من الصلاة والعبادة كلها منطلقاً إلى إعداد الإنسان إعداداً يجعله صالحاً للارتقاء إلى عوالم الجنان والحياة الآخرة المثلى (وهو نوع من الإعداد الشبيه بإعداد رجال الفضاء) مع اختلاف السبل والغايات ، وهذه العبادات تربى الإنسان على المقدرة والمقاومة والتغلب على الصعوبات والتسامى والبذل ، واتجاه الهوية كلها إلى الله وإلى بذل النفس والاستشهاد .

رابع عشر : جعل الإسلام « الأخلاق » قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم ، وجعل أساس الأخلاق الكظم وهو قمة الدين ، والمجاهدة هى رأس الأمر كله بمعنى السير ضد تيار الأهواء والمطامع والرغبات المذلة واخشيشان النفس والجسم ، والقدرة على مواجهة الأحداث والأزمات بصبر وطمأنينة ، وبناء الشباب على الصمود إزاء الأخطار التى تحيط بالمسلمين ، والإسلام دائماً ، وتجعلهم فى كل ظروف حياتهم مصابرين مرابطين على تعبئة .

ومن ذلك ربط الإسلام بين الخلق والتطبيق . وجعل التطبيق هو مناط الإيمان ولا يتحقق الإيمان حتى يصبح سلوكاً فى واقع الحياة . وجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قضية أساسية فى الخلق الإسلامى .

خامس عشر : دعا الإسلام إلى (الفكر والذكر) ونعى على الغافلين

الذين يعطلون عقولهم ويغلقون فى أنفسهم منافذ المعرفة والنور ، والفكر والذكر هو الذى يطلق الطاقات ، ويفتح الطريق إلى العلم ، وهو الذى هدى المسلمين إلى العلم التجريبي واختراق آفاق الكون والجبال والبحار . ولقد أطلق الإسلام بالقرآن العقول من أسارها التى كانت تحصرها حول الأوثان وعبادة الأصنام وحررها من أسر التعدد والشرك ودفعها إلى أن تعرف الله عن طريق النظر والسمع والفكر .

ولا ريب أن مفهوم التصوف العلمى إنما هو الذى جاء به الإسلام من خلال الانقطاع للعلم باعتباره عبادة وجهاداً . حيث لا غرض مادى ولا هوى سياسى ولا سعى لشهرة زائلة . بل وقف العقل والنفس للحقائق ووجهة التعليم والعلم والتربية فى ذلك هو مرضاة الله على أن يتم ذلك كله فى إطار تقوى الله والخوف منه ، وفى محيط الأخلاق ، والمسلمون اليوم والعرب على وجه الخصوص يرون كيف كانت نتائج الفكر الوافد فى بناء مجتمعاتهم حين التمسوا بعض نظريات فى التربية التى هجرها أهلها وأثبتوا فسادها ، وهم اليوم يعودون إلى التماس منهجهم التربوى من خلال قيمهم الأساسية : من خلال القرآن وأسوة الرسول الكريم وصحابته حيث يقوم على دعامتى الدين والأخلاق ، وتربية الناشئين تربية إسلامية خالصة .

وقد تأكد للدراسات الجادة المخلصة التى جرت فى السنوات الأخيرة من خلال ملتقيات الفكر الإسلامى فى مصر ومكة والجزائر وطرابلس ، وفى كل مكان أن مصدر القوة الأولى فى الصمود والمواجهة هو بناء الشباب على أساس التربية الإسلامية وبناء الأسرة على أساس الإسلام والتحرر من كثير مما سيطر على فكرنا الإسلامى من زيف ومن نظريات وافدة

٨٩

بعد أن ثبت مدى خطورة هذه المناهج التربوية التى تحقق هذه النتائج الخطيرة التى وصلت بالعرب إلى موقف الأزمة ، الذى سوف لا يخرجهم منها إلا العودة إلى الإسلام فى منابعه الأصيلة ومفهومه الخالص .

وسيظل الإسلام هو النبع الصافى الذى يعطى عطاءً ثرًا فى كل مجالات الفكر والحياة .

خامساً : تأمين المجتمعات من الانحراف

من أبرز معالم عالمية الإسلام : التكامل فى الفكر والمجتمع .

١ – فقد قرر الإسلام وحدة الفكر وترابطه بجميع عناصره الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والتربوية ، وقرر فى نفس الوقت وحدة المجتمع بجميع عناصره : أقويائه وضعفائه ، فقرائه وأغنيائه . وقد ركز على اليتامى والمرضى والمساكين وذوى الحاجة والعلة والمزمنين وجعل أمر حمايتهم ورعايتهم حقاً مفروضاً على المجتمع كله . وبذلك حمى الإسلام مجتمع المسلمين من الانشطارية التى تفصل بين القيم : وبين الدعوة التى أبادت الضعفاء وعقّمت الفقراء ، وحررهم من أخطر التحديات ، وهو عبودية الإنسان للإنسان .

٢ – كذلك اعترف الإسلام بالرغبات الحسية للإنسان ، ودعا إلى تحقيقها عن الطريق الطبيعى والمشروع بالزواج ، وبذلك حمى المجتمع من آفة التمزق النفسى ، وهو حين حرم الزنا قصد به احترام الجنس وتنزيهه عن العبث ، ورغب إلى الارتفاع بالمرأة عن أن تكون متعة للرجل . فقد أُمِرَ المسلمون بالعفة إذا عجزوا عن الزواج . ولقد نظر الإسلام إلى الخطيئة نظرة كريمة فهى ليست غولاً يطارد المخطئين ، ولكنها مما يغفره الله للتائبين . ولقد حرر الإسلام المسلمين من أن يكون أحدهم مسئولاً عن خطيئة أحد سوى نفسه ، وقرر بأن لا تزر وازرة وزر أخرى .

٣ – ربط الإسلام بين الروح والمادة فى الفكر كما ربط بين الدنيا والآخرة ، فحرر المسلمين من انفصام الشخصية أو انحرافها نحو مادية كاملة أو روحية مغرقة . وقد جعل الإسلام : الدين للدنيا كالروح للجسد .

٤ – ربط الإسلام بين الإيمان والعمل ، وبين الفكرة والتطبيق . واتصل ذكر الإيمان فى القرآن بذكر العمل الصالح أكثر من خمسين مرة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقرر الإسلام أن أخطر التحديات هو انفصال العلم عن العمل : أو بقاء العلم دون ممارسة فى العبادات والمعاملات ، أو تحول الإيمان الاجتماعى إلى إيمان فردى بمعنى الزهادة والتنسك .

٥ – إن إقرار الإسلام لمبدأ البعث والجزاء هو دعامة المسئولية الفردية فى الحياة الدنيا . فلابد أن تكون الحياة الدنيا رسالة ومسئولية ، وأن يكون المسلم فيها فى معاناة الشر والخير . ومن ثم فعليه أن يتصرف بإرادته الحرة ، وأن يواجه مسئوليته فى الآخرة . ولا ريب أن ترتيب البعث على الحياة والموت ليس أمراً مستحيلاً ولا متناقضاً مع الفطرة أو العقل أو العلم ، لأن مفهوم المسئولية الفردية تترتب عليه نتيجة : المحاسبة والجزاء . فإقرار البعث مطابق للحقيقة وإنكارها هو الذى يشكل التناقض ، أن يصور الحياة الدنيا بأنها مصادفة عارضة بينما لا يوجد شيء أبداً باسم المصادفة (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

٦ – يقرر الإسلام أن الفرد للجماعة والجماعة للفرد ، والكل للإسلام وأن الإيمان بالله قوة دافعة تعطى الأمل وتحول دون اليأس ، وتبعث الثقة وتدعو إلى المعاودة فى حالة الإخفاق .

٧ – ألغى الإسلام الفكرة التى ليست من رسالات السماء القائلة بأن هناك صراعاً بين الجسم والروح . وأعلن أن الجسم والروح متكاملان . وبذلك أسقط مفهوم اعتزال المجتمع والرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحى . فقد آمن الإسلام بالروح والجسد معاً ، ونظر إلى الإنسان نظرة متكاملة وكرمهما معاً . فدعا إلى الاهتمام بالجسد من ناحية النظافة وجعل الطهارة دليل الإيمان ، ودعا إلى طهارة القلب أيضاً فجمع بين الطهارة والنظافة ، والزينة ، وربط بين الدنيا والآخرة ، وجعل دعوة المسلمين إلى العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة .

٨ – من حيث إن الإنسان مستخلف فى الأرض عن الله فهو مسئول ومحاسب . ولقد قرر الإسلام نِسَباً وضوابط بين مختلف جوانب الحياة وقيمها وجعل لها أسبقيات وأولويات ، وخاصة فى مجال العمل والمعرفة والمال والقوة والعبادة .

٩ – فرق الإسلام بين العلم النافع والعلم الزائد على الحاجة ، ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل علم بأحسنه ، وأن يتبعوا أحسن القول الذى يستمعون إليه .

١٠ – هاجم الإسلام الخرافات والسحر والكهانة . وأنكر العرافين وطارد الأوهام والمعتقدات الباطلة وأنكر ادعاء علم الغيب ، واعتبر السحر كفراً وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمانه عن الضعف البشرى الذى يجعله ألعوبة فى يد أوهام الطوالع ، وأضاليل العرافين .

١١ – أنكر الإسلام العنصرية أو الامتياز الفردى القائم على الدماء والأعراق ، ولا يعرف الإسلام لتقدير الناس والأفراد إلا مقياساً واحداً

هو التقوى والعمل الصالح ، ولا يعرف الإسلام القداسة أو العصمة للبشر فهم سواء فى التعرض للخطأ والصواب .

١٢ - الرسول صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله . كان ولا يزال وسيظل النموذج الأسمى للإنسان والمثل الكامل القائم أمام كل المجاهدين والمصلحين والنوابغ . فهو القدوة المثلى والأسوة الحسنة عبر العصور .

١٣ - إن الإسلام يقرر الارتباط بين الأخلاق وأدوات الإنسان كلها من لباس وكساء ، ويدعو دعوة صريحة إلى أن يكون لباس الرجل حاسم الدلالة على رجولته ولباس المرأة كريماً حامياً لها من الشرور . ولا ريب أن الأخطار تستثار بإخضاع الملابس للأهواء والدعوات الوافدة .

١٤ - ليس فهم الحياة فى الإسلام بوصفها معبراً إلى الآخرة بمنقص من هدف بنائها وعمارتها وتحسينها . ولكنه أكثر دعوة وأحكم طريقاً ، بالاتجاه إلى الله وتقدير المسئولية والإيمان بالجزاء الآخر . ولقد دعا الإسلام إلى العمل والتعمير والاقتحام . ثم الرضا بقضاء الله فى النتائج .

١٥ - ليس فى نشر العلوم والثقافات عوض عن التربية والتهذيب الخلقى . ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير . كما يصلح للبناء والتعمير ، ولابد لاستعماله استعمالاً صحيحاً من أن يتم ذلك فى إطار الأخلاق وخير الناس . والإسلام يجمع إلى التعليم التربية . ويرى أن العلم وحده لا يؤدى مهمته على وجهها الصحيح إلا إذا صحبه خلق وغاية واضحة قائمة على تقوى الله .

١٦ - يفرق الإسلام بين الأخلاق والتقاليد ، فالأخلاق ثابتة ، والتقاليد متغيرة : أما الأخلاق فهى القيم التى رسمها الإسلام (والأديان

جميعاً) والتى لا تتعرض للتحول والتغيير لأنها مرتبطة ببناء الإنسان نفسه . وليس ببناء المجتمعات ، وقاعدة الأخلاق الأساسية أن الحق واحد والخير واحد ، وأساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشر والحق والباطل ، وسيظل الحق والخير هو الحق والخير على اختلاف الأزمنة والأمكنة لا يتغير ولا يتحول . أما التقاليد فهى ليست كذلك .

١٧ – الحرية التى جاء بها الإسلام هى تحرير الإنسان من قيد العبودية وتحرير العقل الإنسانى من قيد الجهل والخرافة والوثنية .

١٨ – قرر الإسلام أن كل فرد فى المجتمع الإسلامى يستحق من الاحترام والطاعة بقدر ما يتحمل من المسئولية وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق .

ويعطى الإسلام أهمية كبرى للإنسان كفرد فى مجتمع ويؤكد حاجته إلى التقدم المستمر ، ولذلك يحرر طاقاته كلها : فكرية وخلقية وعملية ، لينطلق فى خدمة التقدم كإنسان ، وفى خدمة المجتمع ككل دون أن يسمح لعائق أن يقف فى وجهه ، سواء عائق الطبقة أو الجنس أو اللون .

الباب الرابع

حضارة الإسلام

أولاً : حضارة الإسلام

لما جاء الإسلام كان مقدمة لتحقيق قيام حضارة بما توفر له من أسباب بناء مجتمع إلى إقامة نظام إلى تحضير البداوة وتمدين الصحراء ، وبما وسع به دائرة الأمة ذات المعتقد الواحد والنظام الاجتماعى الواحد حتى شملت ثلاث قارات فى أقل من سبعين عاماً .

ولقد كانت الحضارة قديمة قدم التاريخ نفسه . فلما جاء الإسلام كانت الحضارات المعاصرة له قد بلغت غايتها فى الانحراف ، ودخلت مرحلة السقوط ، ولذلك فإنها سرعان ما تهاوت وانتهت ولم تخلف وراءها إلا ما تخلفه الحضارات عادة من ميراث عالمى فى مجال المدنية والعمران .

ولما كانت الحضارة تقوم على حركة مدنية عمرانية تتحرك فى إطار عقدى ، فإن هذا الإطار هو ميزانها ومنطلقها إلى الاستمرار أو التمزق .

ولقد بدأت الحضارات فى مجال النمو العمرانى والمدنى من نقطة أساسية هى : معطيات قوانين الطبيعة التى مكنت الإنسان من معرفة تركيب المادة . ثم كان على ثمرة هذه المعطيات أن تتحرك فى إطار معين .

ولا ريب أن جانب (المدنية) فى الحضارة الاسمية هو عصارة الحضارات السابقة التى هى فى الأغلب مجموعة الحضارات الإبراهيمية الحنيفية التوحيدية . ذلك أن (أغلب) معطيات الحضارات السابقة

على الحضارة الإسلامية قد تشكلت فى أفق المنطقة القائمة بين وادى الرافدين ووادى النيل وجنوباً إلى اليمن فى شبه الجزيرة العربية . وهى فى مجموعها حضارة الكلدانيين والأشوريين والآراميين والكنعانيين (الفينيقيين) والمعنيين والسبئيين والحميريين .

ومن الثابت المقطوع به أن حضارة اليونان والرومان قد نقلت أغلب معطيات هذه الحضارات إليها وبلورتها فى صورة جديدة وآية ذلك أن نظريتى فيثاغورس وأقليدس وجدتا مدونتين فى الرقم الطينية البابلية فى العراق (وقد كشف عنها عام ١٩٤٩ فى تل حرمل بغداد) فالحضارة الإسلامية التى قامت فى المنطقة الواقعة بين حدود الصين وحدود فرنسا منذ القرن السابع الميلادى (وبعد سقوط حضارات روما وفارس والهند) هى فى الأغلب من نتاج الحضارات الإبراهيمية الحنيفية التوحيدية التى قامت فى المنطقة الممتدة من وادى الرافدين إلى وادى النيل جنوباً إلى اليمن حيث نمت دعوة إبراهيم وامتدت فى إطار الحنيفية التى صاغت مفهوم التوحيد والأخلاق والإخاء الإنسانى .

وقد أضيف إليها قليل من إنتاج هلينى ، غير أن هذه المعطيات المادية التى استقدمتها الحضارة الإسلامية وصححتها ونمتها وأعادت تشكيلها من جديد ، لم تقم على نحو واضح صريح إلا حين صيغت فى إطار فكرى وثقافى وعقائدى جديد قوامه : الإيمان بالله الواحد الأحد وتحرير العقل البشرى والنفس البشرية من الوثنية وتحرير الإنسان من العبودية ، وقيام الوحدة الإنسانية العالمية ، وقيام الأخوة الإنسانية العالمية ، وقيام ميثاق حركة الحضارة فى مضامينها المختلفة من أجل إسعاد البشرية بالرحمة

والإخاء ، ورعاية اليتيم وكفالة الضعيف وحماية المرآة ، وتمكين الجماعة من التكافل الشامل .

وقام إطار التوحيد والأخلاق والأخوة الإنسانية وفق النهج الذى جاءت به رسالات السماء المتوالية المستمرة منذ بدأت البشرية خطوها على الأرض حتى ختمت بالرسالة العالمية الأخيرة : « رسالة الإسلام » .

وقد حملت هذه الأديان العالمية كما يطلقون عليها والسماوية كما نقول : معادلة الحضارة : على أساس أن حركة الإنسان فوق الأرض هى حركة عمران ، وأن الإنسان قد حمل هذه الأمانة من أجل استمرار تعمير الكون وهى أمانة عظمى ، أعطيت لها كل العوامل التى تكفل لها النجاح من حيث « تسخير » قوانين الطبيعة وقوى الطبيعة للكشف عما فى ذخائر الأرض والبحر من رزق على النحو الذى وصفه القرآن .

(وسخر لكم الفلك وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر ، وسخر لكم الليل والنهار) ، ولكن حركة هذه المدينة أو هذا العمران لا تتم إلا فى إطار عقدى أخلاقى ، هو أن تكون موجهة بالحق إلى الناس جميعاً على أساس العدل والرحمة والاخاء فإذا جاوزت الحضارة عقدها سقطت ، ولكن ما حققته من إيجابيات لا تموت ، ولكنها تبعث من جديد فى حضارة أخرى . أما سلبياتها فهى وحدها التى تذهب وتلك هى الزَّبَدُ :

(فأما الزَّبد فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

تسقط الحضارات فى هيكلها المادى حين تجاوزعقدها الأخلاقى ولكنها تخلف معطياتها حتى تلتقطها الأمم من بعد .

ومن هنا فقد ورثت الحضارة الإسلامية مختلف منجزات الحضارات

البشرية السابقة عليها فى مصر وفارس والهند والصين واليونان . وبذلك قامت لأول مرة حضارة ذات مضمون مدنى متقدم فى إطار عقدى على أساس التكافل الاجتماعى والأخوة الإنسانية . لقد أخذت الحضارة الإسلامية معطيات « المدنية » عند نهاياتها التى تركتها عندها الحضارات الغاربة ومضت بها تتمها :

* علوم الكتابة وأدواتها والورق وصناعته .
* علوم الزراعة وتدجين الحيوانات .
* التجارة وأسالب الرحلات والقوافل .
* علوم البناء والعمران والفنون .
* علوم الحرب والقتال والرياضة وصناعة البارود والنار اليونانية وتنظيم الجيوش .
* علوم الفلك والجغرافيا والخرائط .

أما بالنسبة للقوانين والشرائع والنظم الاجتماعية والاقتصادية والآداب والفنون ومعطيات الفكر القديم كله فقد تجاوزت عنه واعتبرته ميراث الحضارات الخاص بها المرتبط بعقيدتها ، وقد استغنت عنه بما لديها من قيم جديدة أساسها القرآن ، ولم يبدأ المسلمون هذا العمل كله إلا بعد مرحلة دقيقة من بناء صرح الإطار العقائدى الفكرى المستمر من القرآن الكريم أساساً وتشييده ودعمه وتحرير علوم السنة والفقه واللغة ، وعندما اكتمل هذا الإطار واستقام صلباً لا تنفذ إليه الأهواء والمطامع بدأ المسلمون يواجهون تراث المدنيات القديمة : قراءة ومراجعة وتصحيحاً ، وإعادة نظر ، ثم صاغوه فى إطار فكرهم أساساً وأخذوا فى تنميته على النحو الذى

بلغ به غاية الغايات حين انبثق عنه :

المنهج العلمى التجريبي الإسلامى : الذى ما زال حتى اليوم قوام العلم والمدنية الحديثة . لقد درسوا التراث القديم للطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية ، وصححوا أخطاءه ثم دفعوه دفعة كبرى إلى الأمام . وقد أقر الإسلام مبدأ الاقتباس فى مجال العلم وتكميل أعمال السابقين ، والاعتراف بفضل كل من وضع لبنة فى بناء العلم والعمران .

ولكنهم فرقوا بين شيئين : بين هذا المجال العلمى ومواريثه ، وبين عقيدتهم ، ثم صهروا كل ما أعطوا فى إطار فكرهم ، وجعلوا منطلق العلم والعمران والتقدم المادى كله بدأ وعوده متصلا بالعقيدة الأساسية التى تقيم الحضارة على أساس العدل والرحمة والإخاء الإنسانى .

وهكذا نقل المسلمون حصيلة الحضارات القديمة فى مجال العمل والعمران إلى إطار عقيدتهم ونموها . وزادوا فيها حتى بلغوا بها الغاية وأنشأوا من خلالها علوماً جديدة وقدموا معطيات كبرى : حرروها من الزيف ، وارتفعوا بها عن الترف والفساد والظلم والإباحية ، وجعلوا وجهتها ربانية الطابع إنسانية العطاء . .

* * *

ثانياً : العربية لغة القرآن

يقول العلامة ابن جنى فى كتابه الخصائص «ونزل القرآن بلغة العرب التى كانوا ينظمون بها شعرهم ويلقون بها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم . ومصداق ذلك قوله تعالى فى سورة إبراهيم «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» . وجاءت صفة «مبين» نعتا للسان العربى وللقرآن اثنتى عشرة مرة فى القرآن الكريم . (وهذا لسان عـــربى مبين) .

ولما سمع الوليد بن المغيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن الكريم عاد إلى قومه – وهو العربى الذى شهد أسواق العرب فى عكاظ والمجنة وغيرها ، وسمع الكثير من روائع الشعر الجاهلى – وقال : «والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام البشر ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه» .

وهذه كلمة رجل لم يؤمن ولكنه يعرف مدى العلاقة بين بلاغة القرآن وبلاغة اللغة الجاهلية ، ويأخذ فى اعتباره كما يأخذ كل من عايش نزول القرآن وجود عدة لغات وقت التنزيل ، ومدى أهمية اختيار الله سبحانه للعربية وتشريفها على سائر اللغات باختيارها لغة لكتابة الأخير . (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) .

ويعرف الباحثون هذه الحقيقة مضافاً إليها أن أمماً عديدة قد ماتت وماتت لغاتها : كالسنسكريتية واللاتينية والأشورية والسريانية . أما العرب فقد حفظ القرآن لغتهم . لقد ضمن لها القرآن البقاء والخلود .

يقول أحد البلغاء : إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة فى العالم اليوم، كما ماتت لغات حية كثيرة فى سالف العصور ، إلا « العربية » فستبقى بمنجاة من الموت ، وستبقى حية فى كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التى تسرى على سائر لغات البشر ، ولا غرو فهى متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالقرآن هو الحصن الحصين الذى تحتمى به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ووسائلها الهدامة .

* * *

ولقد يعطينا الضوء على ما نحن بسبيله أن نستعرض هذه المحادثة التى جرت بين المرحوم كامل كيلانى والمستشرق فنكل ، يقول المرحوم الكيلانى فيما روى إلىّ : كانت بينى وبينه صلات وثيقة . وكان يأخذ برأيى فى المشاكل التى تقابله فى الأدب لما يعتقده فىّ من الصراحة ، ففى ذات يوم همس فى أذنى متهيباً : قال خبرنى عن رأيك بصراحتك المعهودة أأنت ممن يعتقدون إعجاز القرآن . أما لعلك تجارى جمهور المسلمين الذين كانوا ينقلون ذلك كابراً عن كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على أحد ، وهو يحسب أنه قد ألقى سهماً لا سبيل إلى دفعه فابتسمت له

كما ابتسم لى وقلت : لكى نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده ، فلنحاول ليظهر لنا : أنحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده . فلنجرب أن نعبر عن سعة جهنم . فماذا نحن قائلون : فأمسك بالقلم وأمسكت به فكتبنا نحو عشرين جملة متميزة الأسلوب نعبر بها عن هذا المعنى .

فقلت له مبتسماً ابتسامة الظافر الواثق :

الآن تتجلى لنا بلاغة القرآن بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه فى هذا المعنى .

فقال : هل أدى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أديناه .

فقلت : لقد كنا أطفالاً فى تأديته .

فقال مدهوشاً ، وماذا قال :

قلت . قال تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

وصفق أو كاد وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة .

وقال : صدقت نعم : صدقت .

* * *

وفى نظرة الباحثين الغربيين من المستشرقين بالرغم من كل محاولات التزييف يبدو واضحاً دور القرآن وأهمية أثره :

يقول بروكلمان : بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية هى وحدها اللسان الذى أحل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم .

وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى .

يقول نولدكه : بالرغم من نظرة أمثالنا الغربيين إلى القرآن من حيث الوحى ، فإننا على ثقة من أن كل كلمة فيه وكل حرف منه هو اليوم كما كان فى أيام محمد .

ويقول جاك بيرك : لقد ظل القرآن دائماً برغم الدعوة إلى دراسة الشعر الجاهلى أعظم نصوص اللغة ، ذلك أن القرآن بمعنى الكلمة المنزلة ، وعلماء الكلام يجمعـون على سمو الأسلوب القـرآنى الذى لا يمكن الإتيان بمثله .

أما الباحثون فإن تقريرهم لأثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ، يتمثل فى عدة نقاط أساسية :

الأولى : أن القرآن الكريم المرجع الأول لرواة اللغة العربية . وقد اعتمد كنقطة استقرار واستنتاج . وقد حفظ عدداً من الاستعمالات التى لم تعد اليوم جارية فى الأسلوب العربى ، وقد أغنى اللغة بمصطلحات كثيرة فى مجال العبادات والعقائد والمعاملات كما قدم أسلوباً جديداً .

ثانياً : أحدث القرآن أثراً بعيد المدى فى الفكر الإسلامى فى جميع جوانب الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية .

ثالثاً : فضل القرآن فى انتشار اللغة العربية على نحو لم تعرفه أى لغة أخرى فى العالم .

رابعاً : غير القرآن العرب تغييراً تامًّا ، اجتماعيًّا ونفسيًّا ، وفتح أمامهم آفاق النظر والتأمل والفكر .

خامساً : أصبح القرآن سوراً للغة العربية الفصحى يدفع عنها كل أذى ، ويرد عنها كل عادية . وبذلك حفظ اللغة العربية الفصحى مما خضعت له سائر اللغات من التقهقر والتشعب والضياع والاندثار على حد تعبير الدكتور عمر فروخ الذى يقول :

« نحن نقرأ القرآن الكريم اليوم باللفظ والصوت والأداء والوصل والفصل والوقف التى كانت فى أيام الرسول لا نخل بلفظة أو كلمة أو حرف من حركة أو همسة أو نبرة ، وبهذه العناية البالغة بالقرآن الكريم عاشت اللغة العربية الفصحى فى ثوبها الذى كان لها قبل ستة عشر قرناً أو تزيد ، وكما كانت قبـــل ألفى عام أو تزيد . ومضى المسلمون بعد ذلك يتقنون ألسنتهم بلغة القرآن ويقومون كلامهم بكلامه ويطبعون أساليبهم على أساليبه تضميناً واقتباساً وحفظاً لا محاكاة وتقليداً . ومن هنا أصبح الطفل العربى اليوم يقرأ نماذج من الشعر الجاهلى . فلا يتعثر فى لفظها ولا يتردد فى معناها . وأن أثر القرآن لم يقصرعلى العرب وحدهم . بل تعدى إلى غير العرب .

سادساً : كان له أثره البعيد المدى فى اللغات المختلفة . أما اللغة الفارسية فقد فقدت شخصيتها القديمة وظهرت الفارسية الجديدة . وقد تشكل نصف معجمها كما تشكلت أساليبها وأوزانها من العربية حتى صارت لساناً آخر غير اللسان الجاهلى . وكذلك الأمر فى اللغة التركية ولغة الأكراد وسائر لغات آسيا وأفريقيا ، فقد فقدت كل لغة من هذه اللغات أكثر خصائصها الجاهلية ودخلت فى عربية القرآن .

سابعاً : ارتبطت بين العربية وبين القرآن صلة جعلت من العسير ترجمة القرآن إلى لغة أخرى . وأن هذه الترجمة مهما تكن درجة جودتها

تسمى (ترجمة معانى القرآن) أما القرآن نفسه فإن للأسلوب العربى بخصائصه الثابتة التى هى جزء لا ينفصم عن جوهره ولا يمكن التجاوز عنه ألبتة (وكذلك أنزلناه حكماً عربيًّا) والعربى كل من يفقه اللغة العربية ولو كان من الزنوج .

* * *

من هنا كانت الدعوة الصادقة الملحة : تعلموا تعبيرات القرآن ولا تجعلوا للكلمة العربية الإسلامية مدلولا خارجاً عما تريدون أنتم وعما هو لها بالفعل .

ومن هنا قول محمد إقبال : كنت أتلو القرآن أيام الطلب كل صباح بدون فهم . فقال لى والدى كلمة غيرت مجرى حياتى .

قال يا إقبال : اقرأ القرآن وكأنه نزل عليك .

منذ ذلك الوقت كرست جهدى ووقتى لدراسة العربية حتى أفهم القرآن وكأنه نزل علىّ .

وقد انتبه إلى هذا المعنى (المستشرق براون) حين قال :

نحن نختلف مع المسلمين فى كوننا نعتبر كتابنا مقدساً سواء أقرأناه فى اللغة الأصلية أم فى لغتنا الحالية . أما المسلمون فيعتبرون القرآن كلام الله وإنه لتنزيل من رب العالمين وأن الله هو الذى يخاطبهم وليس النبي محمد . ولذلك فإن القرآن لا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى لأن المترجم مضطر أن يورد فى ترجمته قدراً من التفسير يستعين به على إظهار معانيه بالإضافة إلى ذلك فإن المسلم سواء أكان فارسياً أم تركيًّا أم هنديًّا أم أفغانيًّا أم من أهل الملايو فإنه يرتل القرآن باللغة العربية ويتلفظ بالشهادة باللغة العربية .

يضاف إلى ذلك أننا نجد لغات الشعوب التى اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية ولو أن أحداً أراد أن يكتب شيئاً بالفارسية بحيث تكون كتابته خلواً من الألفاظ العربية لتعسر عليه الأمـر » .

ولا ريب أن واحداً من أعلام أفغانستان هو العلامة صلاح الدين السلجوقى كان صادقاً وهو يحدث العرب فيقول : هذا القرآن معاشر العرب يجمعنا وإياكم بل يحفظنا وإياكم ، كما حفظ كيانكم وحمى اللغة العربية من الاندثار فى حين أن اللغتين الشقيقتين : السريانية والعبرية اللتين كانتا أوسع نطاقاً من العربية قد ماتتا وانقرضتا منذ أمد بعيد وعلينا أن نجاهد لكى يبقى القرآن ولغة القرآن الخيط الذهبى الذى يؤلف بين قلوبنا ديناً وثقافة كى لا تنفصم العروة التى كنا معتصمين بها والتى جاهد فى سبيلها الآباء .

ثالثاً : الإسلام وتحديات العصر

تحققت عالمية الإسلام نتيجة لذاتيته الخاصة وتفسيره المفرد لشئون الكون والحياة والمجتمع : واستمداداً من نظرته المتكاملة الجامعة (واقعية ومثالية معاً) ومن خلال تحريره الفرد من عبودية الوثنية فكرياً وعبودية المجتمع بشرياً .

١

وتقوم قاعدة الإسلام على ثلاث قوائم أساسية :

١ – الإرادة الحرة ٢ – التكامل . ٣ – أخلاقية الحياة .

١ – فالإسلام من حيث هو منهج حياة ونظام مجتمع يصدر عن مفهوم أساسي : هو التوحيد ، وأن الإنسان مستخلف فى الأرض لتحقيق رسالة ثابتة هي تعمير الكون ، وأن له إرادته الحرة التى هى مناط مسئوليته ، والمرتبطة أساساً بالبعث والجزاء ، ومن هنا فإن الإسلام يرفض « الجبرية » التى تحاول أن تسيطر اليوم على العلوم الاجتماعية من خلال مذاهب النفس والأخلاق والاجتماع .

والتى تستمد مفهومها من فرضية زائفة هى أن الحياة الدنيا هى غاية

الوجود الإنسانى وأن سلوك الإنسان وتصرفه محكوم بقوانين اجتماعية تجعله خاضعاً لها وليس له إرادة حرة .

٢ – ولما كان الإسلام منهجاً متكاملاً جامعاً بين العبادة ونظام المجتمع فإنه لا يقر الانشطارية أو التجزئة بين القيم أو الفصل بين وحدات الحياة المختلفة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو التربوية ، فهى جميعها تتحرك من خلال « الإنسان » ومن أجله .

٣ – وتجرى هذه الحركة جميعها : حركة الإنسان فى المجتمع من خلال طابع الأخلاق الذى يصبغ مختلف وحداتها وحركاتها . ومن هنا فإن الإسلام يرفع الانشطارية ويرفض اللاأخلاقية .

٢

وأساس الإسلام تكامل المادى والمعنوى . ومن هنا فإن الفرد والمجتمع يتعانقان ولا يصطرعان ، وكذلك (الفكر والمادة) فإنهما يتكاملان ولا يتقدم أحدهما الآخر .

والإسلام منهج وليس نظرية . ويقوم منهج المعرفة الإسلامى على التحرر من الهوى والعصبية .

والعقل فى الإسلام يتخذ من الوحى هادياً ومرشداً ، وإلا فإنه يعجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة لما وراء الطبيعة .

ومن هنا فإن منهج المعرفة الإسلامى هو جماع الفطرة والعقل والوحى والقلب . وليس فى الإسلام (شريعته وفكره وبطولاته) تصور فلسفى

ولا تصور مادى ، ولكنه تصور إنسانى جامع يقوم على قاعدة التوحيد والإيمان بالله والأخلاق .

٣

إن مفهوم الإسلام الأصيل قد تصحح فى هذا العصر بالتماس المنابع الأولى من القرآن والسنة الصحيحة . وعلى المسلمين أن ينتقلوا إلى مرحلة الإيمان ، وذلك بإعادة تكوين الفرد المسلم مقدمة لبناء المجتمع المسلم .

وإنما يتم ذلك بتحررهم من المناهج الوافدة ، فعلى المثقفين العرب والمسلمين أن يفكروا بلغتهم وأن يتجاوزوا المذاهب والنظريات التى تختلف مع منهجهم الأصيل .

وإن أبرز ما يختلف فيه الإسلام عن الدعوات والمذاهب الوافدة يتمثل فى أصول عامة هى :

التوحيد فى مواجهة التعدد .

الصدق فى مقابل الأساطير .

البساطة والوضوح فى مواجهة الظلال والرموز .

الإيمان فى مواجهة الإلحاد .

اليقين فى مواجهة الشك .

المسئولية الفردية فى مواجهة الجبرية .

الإنسانية فى مواجهة العنصرية .

الالتزام الأخلاقى فى مواجهة الإباحة والكشف .

التكامل فى مواجهة الانشطارية والفصل بين القيم .
الاعتقاد بالبعث والجزاء فى مواجهة الدهرية .
الحرية ذات الضوابط فى مواجهة الحرية المطلقة .

٤

الوحدة التى دعا إليها الإسلام والتى تشكلت فى المجتمع الإسلامى هى وحدة ثقافية وفكر وليست وحدة عناصر ودماء . فقد عرف الإسلام مفهوم وحدة الفكر ، وجعله مقدماً على كل العناصر . فالإسلام يقيم روابط المجتمع على العقيدة والإخاء بين المؤمنين بصرف النظر عن أجناسهم أو لغاتهم أو سابق تاريخهم .

فصل العلم عن صاحب العلم نظرية لا يقرها الإسلام ، والعلم علمان ، علم العقيدة والنظرة إلى الوجود والحياة والقيم والأخلاق . وهذه لا يستمدها المسلم من خارج أفقه . أما علم الطبيعة والفلك والصناعة فمن حق المسلم أن ينقلها ممن يشاء .

٦

تقوم دعوة الإسلام إلى التغيير فى إطار الثبات ، وإلى التنوع فى إطار الوحدة ، ولا يتخلى مطلقاً عن الثبات والوحدة . ثم تجرى الحركة من داخلهما حسبما يقتضى اختلاف العصور والبيئات بحيث تظل القيم الأساسية قائمة من حيث الحلال والحرام والحق والباطل والخير والشر ، ومن حيث سلم القيم نفسه دون تقديم قيم على قيم أخرى . بمعنى أن تظل قيم الجهاد والعبادة والإنفاق والأخلاق فى مقدمة القيم ، ولا تسبقها مفاهيم الرفاهية أو الترف أو التحلل أو الإباحيات . ولا ريب أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قيمة أساسية فى الإسلام وقوة ضخمة من قوى تحريك المجتمع ودفعه فى الطريق الصحيح .

والحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وإنما هى حركة فى أفق ، وحول مدار .

٧

نقطة البدء فى كل مجتمع وحضارة هى « العقيدة » وفى الإسلام لا يتنافى الدين مع التقدم ، وليست العبرة بالتفوق التكنولوجى . بل العبرة بإقامة الفكرة . و « التقدم » فى الإسلام معنوى ومادى ، ولا عبرة بتقدم مادى يقضى على مقومات التوحيد أو الإيمان أو الأخلاق أو بتخطى الضوابط والحدود التى قررتها الشريعة .

ولقد يتحدث المفكرون عن تطور العقائد والأديان والنظريات والمناهج . أما الإسلام فإن الأمر جد مختلف ، ذلك أن الإسلام ليس ديناً بشرياً ولا نظرية مرتبطة بعصر أو بجيل ، وإنما الإسلام منهج شامل ربانى المصدر ، إنسانى الاتجاه ، يقوم على إطارات واسعة مرنة ، وآفاق واسعة قادرة على استيعاب حركة الإنسان ونشاطه وتقدمه فى كل العصور والبيئات ، شريطة ألا يخرج حركة الإنسان عن الحدود الأساسية .

يقوم عصر الثبات فى الإسلام فى مواقف أساسية منها :

ثبات الإسلام إزاء الأخوة البشرية والعدل الاجتماعى .

ثبات الإسلام إزاء فريضة الجهاد .

ثبات الإسلام إزاء تحريم الربا .

ثبات الإسلام إزاء الالتزام الأخلاق والمسئولية الفردية .

ثبات الإسلام إزاء تحريم الخمر والقتل والميسر والزنا .

٨

العبادات أداة تأهيل وإعداد وترقية الكائن البشرى ليكون قادراً على الحياة فى العالم الآخر ، والصلاة رأس العبادات وعماد الدين . وأن توقيت الصلاة فى ساعات بعينها يحمل فى طياته حكمة عليا لها ارتباط بتفضيل خاص للأوقات ، وتأهيل الإنسان خلال هذه الأوقات لتلق عطاءات روحية ونفسية خاصة تجعله قادراً على الارتفاع عن الأهواء والمطامع ، ويفتح له الآفاق للأشواق الروحية والاتصال به فيصبح ربانياً .

ولقد كانت النفس الإنسانية ولا تزال فى حاجة إلى الصقل الدائم والتذكير المستمر ، إن القلوب تصدأ وجلاؤها ذكر الله .

٩

المجاهدة فى قمة الكمال النفسى ، وهى تعنى معارضة الأهواء والمطامع والرغبات المذلة ، والإنصاف من الناس ، والخروج عن الامتلاك الخاص من أجل البذل والإنفاق فى التماس جزاء الله ورضاء الله ، وليست المجاهدة كظماً بالمعنى الذى تروج له العلوم الاجتماعية . بل هو قمة القدرة على امتلاك النفس ، وتوجيهها نحو طريق الله .

* * *

الباب الخامس

عالمية الإسلام

١ - الذاتية الخاصة للإسلام

٢ - فى مواجهة النظريات

٣ - الإنسان والعلوم التجريبية

أولاً : عالمية الإسلام

ذاتية خاصة للتطبيق وقانون خاص لتفسير الحياة

إن منهج الإسلام هو منهج القرآن الجامع الذى لا ينحرف ، وليس هو مذهب الفلسفة ولا الاعتزال ، ولا الكلام ، ولا الجبرية الصوفية ، ولا العقلانية الخالصة ، ولا الحدس الوجدانى ، ولا الإشراق ، ولا الحلول ، ولا الاتحاد ، ولا الغنوصية . كل ذلك ركام باطل لم يكن يعرفه المسلمون فى صدر الإسلام . وقد جددته الباطنية والمجوسية والشعوبية ، وأعادت صياغته من جديد لتضرب به مفهوم التوحيد الخاص .

لقد كان من عظمة مفهوم الإسلام الأصيل أنه جمع بين العقل الذى حاول المعتزلة إعلاءه ، والقلب الذى حاول المتصوفة إفراده بالنظر . وإذا أردنا أن نلتمس نموذجاً صحيحاً لا يخطئ ولا نخطئ معه ، فلدينا هذا النموذج ممثلاً فى إنسان واحد :

هو : محمد ، صلى الله عليه وسلم . نبى الإسلام ، وخاتم المرسلين ، المرسل بالحق المعصوم ، فهو بمثابة التطبيق العملى لشريعة الإسلام فى إنسان . القرآن هو المنهج والقانون ، والرسول هو : النموذج والأسوة . « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » .

فإذا ما عدونا ذلك ، فالكل بشر وفى درجة واحدة ، والصحابة بعد رسول الله على ما تتابعوا لهم سابقتهم وجهادهم .

ومفهومنا الإسلامى واضح وصريح . هو : أن الرسول ورث المسلمين جميعاً الإسلام ولم يورثه لأحد بذاته ، ولم يكتم الرسول - وحاشاه - شيئاً عن الناس . أو اختص به أحداً من الناس . وإنما قدم الإسلام للعالمين جميعاً ، فليس لفئة من الناس ميزة خاصة ، ولا شريعة خاصة ، ولا نظام خاص .

ولم يجعل الرسول لأهل بيته من الأمر شيئاً يزيد عما لغيرهم من المسلمين إلا من حيث المسئولية يوم القيامة . فقد دعاهم إلى العمل : يا عباس بن عبد المطلب ، يا على ، يا فاطمة ، اعملوا فإنى لن أغنى عنكم من الله شيئاً .

ومن حيث هو السيف الحاسم فى الحق : والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . فلا امتياز لأحد لقرابته إلى رسول الله ، والميزان هو العمل . بل إن مقياس الإسلام فى هذا أبلغ وأعمق . فإن قرابة الفكرة والعقيدة أعظم من قرابة الدم والعرق . فأبو بكر قريب قربه ، وعلىّ قريب قرابة . ولقد قال الحق تبارك وتعالى لنوح عليه السلام عن ابنه « إنه ليس من أهْلِكَ إنه عمل غير صالح » فالصلة فى الإسلام ليست بالنسب ، وإنما بالعمل .

ولقد أدخل المسلمون حب آل البيت داخل فكرهم فأحبوهم حباً صحيحاً جميعاً . ولكنهم احتفظوا بمفهومهم الإسلامى كاملا بأن الله وحده هو الخالق ، وأن النبي يوحى إليه . فهو وحده المعصوم من البشر ، وهو نبي وإنسان ، والناس بعد ذلك متساوون ليس لأحدهم امتياز . وليس فى الإسلام إعلاء للقلب على العقل ، أو للعقل على القلب ،

والإسلام يؤخذ من أصوله الأصيلة ، وليس من كلام الفلاسفة ، أو علماء الكلام أو غيرهم ، ولا نفصل جماعة من هذه الجماعات لندرسها منفصلة عن أنها الفكر الإسلامى . فنظرتنا إليها اليوم هى أنها حلقة من حلقات أو مرحلة من مراحل تشكلت فى داخل حركة الفكر الإسلامى بعد ترجمة الفلسفات توصلاً إلى الأصالة وإلى المفهوم الجامع ، فكل منها جزء ومرحلة ، ولا يمكن أن تكون قائمة بنفسها على أنها الإسلام لا فى عصرها ولا فى جميع العصور . ولذلك يخطئ هؤلاء الذين يفعلون ذلك . وعليهم أن يعرفوا أن ما فى أيديهم لا يزيد عن أنه غرفة فى قصر ، أو حبة فى عقد ، أو كلمة فى صفحة . فإذا جاء من يقول لنا : إن الإسلام عقلانى ، فإننا نقول له هذه مغالطة زائفة يراد بها شيء ما . ونحن نعرف ولع الاستشراق بالمعتزلة . لأنهم اتصلوا بالفلسفة اليونانية . كل هؤلاء الذين جروا شوطاً وراء الفكر الوافد ، يراد اليوم تجديد آثارهم فى سبيل الدعوة إلى نظرية خداعة وزائفة هى : أن الفكر الإسلامى تأثر بالفكر اليونانى فى ماضيه . ولذلك فإنه حين يتصل بالفكر الغربى فى حاضره – وهذا الفكر الغربى امتداد للفكر اليونانى – فإن ذلك لا بأس به ، أو أنه أمر طبيعى .

ولا ريب أن هذه الدعوة كاذبة فى أساسها . فلا الفكر الإسلامى قبل الفكر اليونانى ولا رضى عنه ، ولا أقام منهجه على أساسه يوماً . وإنما كان شوطاً فى مجال اللقاء انتهى بهزيمة الفكر اليونانى . وكل محاولات الفلاسفة والمفكرين فى سيطرة هذه المفاهيم على الفكر الإسلامى ، وعلى الذين يريدون أن يزدادوا اقتناعاً أن يصلوا إلى ما كتبه الإمام أحمد بن حنبل ويجدون قمة ذلك فى كتابات الإمام ابن تيمية . لقد رفض الفكر

الإسلامى مفاهيم الفكر اليونانى ، وتحرر منها بعد قليل من اتصاله بها ، وسرعان ما أقام منهجه الأصيل : المنهج التجريبى الذى هوخطوة إلى الأمام بعد المنهج النظرى التأملى اليونانى الذى لم يكن صالحاً لبناء المجتمع الإسلامى ، والذى كان يمثل حضارة عبودية يقوم فيها السادة على القمة . بينما يقف على السفح « العبيد » الذين لا يجوز لهم فى أى شرعة أن يتحرروا .

أما المنهج التجريبى الإسلامى القرآنى فقد جاء مطابقاً لحضارة الإسلام : حضارة العلم الذى استمد معينه من كلمة « اقرأ » ومن البرهان ، ومن النظر فى السموات والأرض ، ومن قوانين الجماعات والحضارات ، وسنن الله فى الأمم . فكان الإنسان المسلم مطالباً بأن يكشف عن قوانين الطبيعة وقد كان .

كذلك لا تصدق النظرة التى يحاول البعض أن يعلى من شأنها اليوم . نظـرة التفسير الباطنى للقرآن المستمد من بعض كتابات العصـور المتأخرة .

هاتان المحاولتان باطلتان لأنهما لم تلتمسا المصدر الأصيل للقرآن ، والمنطلق الصحيح للفكر الإسلامى .

ليس فى الإسلام غير مفهوم واحد ، والتاريخ الإسلامى يتراوح بين تطبيق الإسلام وبين الانحراف عنه ، وعندما ينحرف المسلمون يقعون فى الأزمات القاسية فلا يخرجون منها إلا إذا عادوا إلى قانون الحضارات وسنن الأمم والجماعات ، وليس فى الإسلام زهادة بمعنى اعتزال الدنيا ، وليس فيه انطلاق بمعنى التحلل ، والزهد فى الدنيا مع العمل فيها وبنائها ،

وحياة المسلم فى الدنيا لابد أن تكون حياة عزة وقوة ، وتمكن ، وحياة يقظة وحذر ، ولابد من القدرة دائماً على تبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين وحمايتها وحماية أرضها وأمتهـا من زحف العدو المتربص فى كل وقت وآن .

والمسلمون اليوم ليسوا فى حاجة إلى مثل هذه المذاهب المتجددة فى داخل الإسلام والتى تحمل رياح التغريب والغـزو الثقافى من الداخـل .

ذلك لأنها لون جديد من ألوان الاستشراق يحاول أن يأخذ أصحابه أنفسهم بأن يكونوا دعاة للإسلام ، أو الفكر الإسلامى ، ثم يلقون السموم فى أمن ، هذا ما يفعل أولئك الذين يعادون الإسلام ، ويقطعون الصلة دون الاستماع لهم ، وهو ليس أمراً جديداً فى حقيقته إلا بالنسبة للمرحلة التى نحن فيها ، ولكنه أمر متجدد ، فلطالما عمدت اليهودية التلمودية إلى دفع بعض أتباعها لاعتناق الإسلام وإلقاء الطمأنينة سنوات وسنوات حتى يكونوا قادرين من بعد على إلقاء شبهة ما أو تسميم بئر أو إفساد عقيدة ، ولقد عمد الاستشراق إلى أسلوب جديد لعل هذه الظاهرة جزء منه ، ذلك هو محاولة كسب القارئ المسلم فى مداخل أبحاثه بإظهار التقدير الكبير للإسلام والقرآن والنبى ، ثم إلقاء الشبهات على مراحل متباعدة ، وبدقة بالغة ، ولكن المسلمين كشفوا هذه الخطة الماكرة . كما كشفوا خطة العمل من داخل الإسلام بإثارة مفاهيم المعتزلة . أو مفاهيم الباطنية .

والأمر كما هو واضح : فنحن إزاء هذه الدوامة الشديدة ليس لنا

إلا سناد واحد ، ومنطلق واحد هو القرآن .

ولا يزال القرآن الكريم للمسلمين وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو مفتاح الخروج من الأزمات . فقد أعطاهم الله فى هذا القرآن بيان النصر ، وأسلوب العمل وسنن الكون والحياة ، وقوانين قيام المجتمعات والأمم والحضارات وسقوطها ، وكشف عن أحداث التاريخ البشرى فى ضوء هذا القانون .

بل إن هذا القانون ذاته قد طبق على المسلمين فى ظل حياة الدعوة الأولى ، والنبى صلى الله عليه وسلم بين أظهر المسلمين حتى لا يظن المسلمون أنهم متميزون عن البشرية بشىء ، وليثقوا أنهم خاضعون لهذا القانون خضوعاً كاملاً . وفى خلال معركتين هما « أُحُد وحنين » صدقت سنن الله فى المسلمين حين تخلفوا عن أسباب النصر . فكانت الهزيمة فى أُحُدْ ، وفى حنين هزم المسلمون حين تفرقوا ، فلما عادوا إلى التجمع تحولت الهزيمة إلى نصر .

وإذا ذهبنا نطبق قانون قيام الأمم وضعفها . ثم عودتها إلى القوة مرة أخرى إذا ما التمست المفهوم الربانى الأصل ، إذا ذهبنا نطبق هذا على تاريخ المسلمين وجدناه واضحاً صريحاً ليس فى حاجة إلى مزيد من التفصيل فى كل وقائع تاريخ حياتهم ، ولقد كان المسلمون واعين تماماً بذلك القانون ، فما إن يتخلف بهم طريق وتظهر بوادر الخطر حتى تعلو الصيحة بالعودة لمنهج القرآن : ميزان الحياة والقائم بالقسط .

وما غفل المسلمون عن هذه الظاهرة الواضحة إلا عندما دخلت عليهم مفاهيم وتفسيرات ومناهج وافدة حاولت أن تقدم لهم تاريخهم على غير

منهجه الصحيح ومن خلال أساليب غريبة عليه ، وكانت هذه المداخلة . وهذا الاحتواء سبيلاً إلى حجب الحقائق التى قدمها لهم القرآن : « وحى الله المنزل بالحق والصلة الوحيدة الباقية بين السماء والأرض وبين العالمين ورب العالمين » وكان الخطر أبلغ الخطر أن يأخذ المسلمون مفاهيم أو تفسيرات فى عقيدتهم وفى قرآنهم وفى تاريخهم من مصادر غير مصادرهم .

وما تصلح المناهج الوافدة فى تفسير التاريخ لتفسر تاريخ المسلمين ، وما تنفع المذاهب الخاصة بالكتب المقدسة لفهم القرآن ، وما تصلح قوانين علم اللغات حين تطبق على اللغة العربية ، وما تصلح مفاهيم علم الأديان المقارن فى تفسير الإسلام ، ذلك أن للإسلام وقرآنه ولغته وتاريخه أصولا أصيلة وقواعد خاصة يدرس بها ، ويفهم منها .

وأن هناك خلافاً شديداً بين تاريخ قام على رسالة السماء التى شكلت مجتمعه منذ اليوم الأول ، ودفعت جحافله وقواته للفتح ، وبين تاريخ قام على مجتمعات أخرى تشكلها فلسفات اليونان ، وقوانين الرومان ووصايا المسيحية ، والدين فيها عبادة ولاهوت وصلة بين الله والإنسان فحسب . وليس لها فى نظام المجتمعات تدخل أو اتصال . وبين دين يقوم على أنه منهج حياة ونظام مجتمع ، والعبادة جزء منه ، وله شريعته الخاصة التى تحكم المسلم فى كل شئونه الفردية والاجتماعية ، الاقتصادية والسياسية والتربوية ، هناك يبدو الفرق واضحاً وعميقاً حين يستقدم مثل ذلك المنهج لفهم الإسلام ، وحيث يطبق منهج انشطارى جزئى على نظام كلى جامع كيف يفهمه وكيف يستوعبه .

وكذلك الأمر فى القرآن والكتب المقدسة . هذه الكتب المقدسة

باعتراف جميع الباحثين بلا استثناء هى من عمل البشر ، ومن كتابة الصفوة ، وليست منزلة من السماء ، ومن حق الباحثين نقدها ومراجعتها . كما كان من حق كتابها الإضافة إليها والحذف منها ، فأى منهج لهذه الكتب يصلح للتطبيق على القرآن المنزل من عند الله ، والذى تنقطع الألسنة والأقلام دون أن تصل إليه ، والذى ظل نصاً موثقاً محفوظاً لم يخضع لتغيير حرف واحد منه أربعة عشر قرناً ، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كذلك الأمر فى اللغة العربية التى هى لغة القرآن ، والتى حفظها الله وأمدها بالقوة أربعة عشر قرناً ، فسارت حيث سار الإسلام ، والتى ليست هى لغة العرب وحدهم ، ولكنها لغة المسلمين . من حيث هى لغة الفكر والثقافة والعقيدة ، هذه اللغة كيف تحاكم إلى علم اللغات الذى وضع لدراسة لغات لم تصل أعمارها بعد إلى ثلثمائة عام أو أربعمائة عام . وهى لغات خاضعة للتحول والتغيير الدائم ، وهى لغات مرتبطة بأمم . انفصلت كلهجات فى أول أمرها عن اللغات القديمة التى ماتت وانتهت .

وكذلك الأمر فى مقارنات الأديان وعلومها . فالأديان القائمة كلها ماعدا الإسلام تقوم على تفسيرات الأحبار والرهبان ، وليس على أصول أساسية ، وذلك بعد تحريف التوراة والإنجيل الأصليين المنزلين من السماء . بحيث أصبح فيها أصول من الدين الأول ، وفيها متغيرات ، وفيها خلاف وتضارب بينهما . بينما الإسلام غير ذلك تماماً . لقد حفظ القرآن للإسلام أصوله الأصيلة ، وحال بينه وبين الاختلاط بالسنة أو بالتفسيرات

المختلفة ، فظل حيًّا باقياً ، سليماً كاملا ، وهو الدين الخاتم للأديان ، وهو نفسه الدين الأول للبشرية ، وكل الأديان التى أنزلها الله تمثل وحدة تامة يؤمن بها المسلم ، حيث يؤمن بجميع الأنبياء والرسل والكتب ، على أنها دين الله الواحد ، هذا الفهم للدين الذى جاء به الإسلام يجعل من العسير على الباحثين تطبيق علوم مقارنات الأديان عليه ، وعجزها فى العلوم عن استيعابه . ومن هذا نصل إلى حقيقة أساسية أخرى هى : أن الإسلام : له ذاتيته الأصيلة ، وله مناهجه الخاصة التى تمكن الباحث من فهمه ومعرفته .

وأن هذه المذاهب الوافدة لن تستطيع أن تصل إلى استيعاب أصوله ومفاهيمه ، لأنها لا تستهدف ذلك أساساً . ولو حاولت أن تقصد إليه لعجزت بأدواتها القاصرة ، وهناك كثيرون فى الغرب فهموا الإسلام عندما حرروا مفاهيمهم ، والتمسوا منابع الإسلام نفسه وأصوله الأصيلة ، فعلى المسلمين أن لا يخدعهم بحث الباحثين فى دينهم ، وعليهم ألا يتلقوا منهم تلك المفاهيم المسمومة التى تريد أن تردهم إلى مفهوم غربى قاصر للإسلام ، يجعله على مستوى التفسيرات الناقصة ، ويحد من سعته وعمقه ، ولا يستطيع استيعابه وفهم أبعاده . وذلك أمر يحول بين الإسلام وبين رسالته الحقة التى يستمدها من ذاتيته المفردة الخاصة ، وإن اشترك مع الأديان الأخرى فى معاداة المادية أو الإلحاد .

إن محاولة « احتواء الإسلام » إنما تتمثل فى أساليب كثيرة منها هذه المحاولة التى يقدمها الاستشراق لفهم الإسلام ، على أنه دين عبادة ، وهو ليس بدين عبادة ، ولكن العبادة جزء منه . وعلى أن القرآن كتاب

كتبه محمد ، كما كتبت الرسل كتبها ، وهو ليس كذلك ، فإنه الكتاب الوحيد الباقى على الأرض المنزل من السماء عن طريق الوحى ، والذى تكفل صاحب الدين بحفظه وبيانه .

وهناك إلى جانب ذلك المفهوم الغربى المتضارب بين النبوة والألوهية ، وفى الإسلام هناك وضوح كفلق الصبح يحجز بين الألوهية والنبوة ، فلا يختلط الأمر فيهما أبداً .

وهناك المفهوم المادى الذى يسيطر الآن على الفكر الغربى ، فيحجب عنه فهم الوحى والنبوة . ويبدو ذلك فى محاولة نسبة القرآن إلى النبى وتصوير الرسول الكريم على أنه مصلح عظيم استوعب فكر عصره . وذلك وهم باطل . كذلك هناك المفهوم المادى الذى يقصر عن فهم تلك المعجزة الكبرى التى حققت قيام دولة الإسلام الكبرى فى أقل من سبعين عاما فيقولون إن السر فى ذلك . هو أن العرب كانوا قبل الإسلام على أبواب حضارة ونهضة . ولذلك فإن الرسول لم يكن أكثر من عظيم قادهم إلى النصر . وذلك قول مردود بوقائع التاريخ . فقد قاوم العرب دعوة الإسلام ثلاثة عشر عاماً أعنف المقاومة .

ومعنى هذا كله أننا فى حاجة إلى العودة إلى المنابع ، فإن أى نهضة حقيقية يتطلع إليها المسلمون لن تتحقق بالتبعية . ولا بالتقليد ، ولن يستطيع هؤلاء القوم أن يعطوها منطلقها الحقيقى . ذلك أن هدفهم هو حجبها وإعطاؤنا « التيه » ، إنهم يعرفون أن مصادرنا الأصيلة هى أداة القوة والنصر . وأن وظيفتهم الحقيقية العمل على طمس هذه الينابيع ، إنها

مؤامرة الاحتواء والإبادة عن طريق الاحتواء . وصهر هذه الأمة فى بوتقة العالمية والأممية حتى تظل خاضعة وتابعة .

وإذا كان المسلمون اليوم يواجهون نفس الأزمة التى عرفها الفكر الإسلامى بعد ترجمة الفكر اليونانى والفارسى . فإن هناك خلافاً له دخل كبير فى تصعيد الموقف ، ذلك أن المسلمين ما كانوا ينقلون ذلك الفكر الوافد بإرادتهم الحرة الخاصة ، وكانوا يقفون منه على الرغم من كل ما ترجم موقف الاختيار . وكانوا قادرين على رفضه أو نقده . أما اليوم فقد فرضت علينا آثار الفكر الغربى فرضاً . وهى لم تلتزم طابع الإرادة الحرة ، أو الاختيار الحر ، وإنما حملت إلينا هذه الآثار المتضاربة المتعارضة حملاً ، وطرحت فى أفق الفكر الإسلامى فى عنف ، وخطر هذه الفلسفات أنها متباينة المصدر ومختلفة الاتجاه ، ومتعارضة الهدف ، فهى ركام عصور متعددة لا عصر واحد ، ومنطلق ثقافات مختلفة ، ومعطيات مذاهب مختلفة مادية وملحدة ووجودية وإباحية ، وهى كلها تضطرم فى أفق فكرنا على اختلاف العصور والبيئات والمذاهب بهدف واضح . هو أن تحدث البلبلة والقلق والاضطراب العنيف . ذلك أن هذه الفلسفات فى الفكر الغربى قد مرت مرحلة بعد مرحلة ، وفى كل مرحلة كان لها طابع خاص متفق مع هذه البيئة أما هنا فقد جاوزت الأزمنة والأمكنة وهى بين التدافع والتضارب تفسد كل شىء ، ولا تعطى شيئاً نافعاً ، ولا يراد بها أن تعطى إلا البلبلة والاضطراب فى محاولة لدفع النفس الإسلامية والعقل الإسلامى إلى الضياع والانهيار . ولذلك فإن الأمر فى مواجهة ذلك كله يتطلب مواجهة صادقة ، ووقفة راسخة ،

حتى لا يغرقنا طوفان المثالى والمادى والوجودى والاقتصادى ، هذه المواجهة الحاسمة تتطلب جهداً مبذولاً . وإيماناً عميقاً ، لأن الأمر يتصل بتلك الباقة العذبة من شبابنا الطاهر القلب ، السليم الفطرة ، الذى يتعرض اليوم لأخطر تحديات هذه الفلسفات ، عقلياً واجتماعياً بعد أن كادت هذه المفاهيم أن تسود المجتمعات ، وتفرض نفسها على الأخلاق وأسلوب الحياة ، على نحو من شأنه أن يطارد الأسلوب الأصيل للمسلمين .

وأخطر الخطر أن تتكاثف السحب ، وتضعف الرؤية ، ويقع الاختلاط والتضارب بين الأصيل والوافد والحق والخطأ والخير والشر . ومن هنا تبدو مهمة المفكر المسلم وهى عسيرة غاية العسر ، وفى حاجة إلى صبر وجلد وإصرار وإيمان بعد الاستعانة بالله . وقد عاش المفكرون المسلمون فى القديم هذه التجربة وأنفقوا الجهد فى تصفية تركة الفكر اليونانى ، وتحرير الفكر الإسلامى منها ، والالتقاء على مفهوم جامع على أساس السنة بعد أن صهروا فيه كل ما استخلصوه من الثقافات الوافدة ، وأخضعوه لمفهوم التوحيد . ونحن اليوم فى حاجة إلى مثل هذا الجهد مضاعفاً لمواجهة ذلك الركام الذى ألقى إلينا . لقد ظل الفكر الإسلامى منذ فجره إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها متمثلا أصالته وذاته وإرادته ، ولن يستسلم للنظرية الوافدة أبداً وسيظل مقاوماً لها بكل ما يملك من قوة .

الإسلام بوصفه المصدر الربانى ، مخالف للفكر البشرى فى زيوفه وأهوائه ومنازعه ، هذا الفكر الذى رفض دوماً مبدأ التقاليد ، ومبدأ

التبعية ، وقرر أن التقليد يمنع من الأصالة . وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية . ولقد كانت ولا تزال للفكر الإسلامى خصائصه العميقة الثابتة القادرة على أن تأخذ حاجتها من كل ما يقدمه الفكر البشرى دون أن يكون له عليها ذلك النفوذ القاهر الذى يشكلها أو يغير طابعها أو يحتويها .

وبعد فإن أخطر الأخطار التى تواجه أمتنا الإسلامية نتيجة لذلك كله هى : فقدان الأصالة فى مجال المجتمع الإسلامى . وأننا نتنازل عن الصفات المميزة لنا يوماً بعد يوم نتيجة غزو أسلوب العيش الغربى لنا . وسيطرة القيم الوافدة على سلوكنا بعد سيطرتها على ثقافتنا . ويرجع هذا إلى عدم القدرة على استيعاب الأصول العامة للإسلام ، وعدم الإحاطة بالفروق الدقيقة بين روح الإسلام ، وبين ما يقدم إلينا من تقاليد وعادات . ومثل ونماذج وأساليب للعيش . وربما قيل لنا إن الإسلام متسامح وواسع لكل ذلك . وأنه لا يضيره تقبل أسلوب العيش الغربى . وليس هذا صحيحا على إطلاقه .

فإن هناك فوارق دقيقة تنقل الإنسان من طابع الإسلام إلى طابع التلمودية أو الوثنية أو المادية . وأنه لا بد من التعرف إلى هذه المحاذير ، فإن الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور متشابهات . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه كما أشار الرسول فى حديثه الكريم .

ونحن نعرف أن النفوذ الغربى والاستعمار يحاول تصديع بناء الشريعة الإسلامية حتى يفرض القانون الوضعى ، وأنه يحطم نظام التربية الإسلامية حين يحاول فرض مناهج الإرسالبات الذى دمر أسلوب الثقافة الإسلامية

حين أقام منهجه العلمانى المادى الانشطارى أسلوباً للمعرفة فى مجال الجامعات والصحافة .

كذلك تأثرت الأسرة بمتغيرات كثيرة تتعارض مع مفهوم الإسلام ، واليوم تتركز الحملة على الفكر الإسلامى نفسه فى محاولة لاحتوائه تحت عشرات الأسماء من المصطلحات الوافدة التى نجد المضمون الإسلامى منها بعيداً وغريباً بدعوى تقديم المعاصرة على الأصالة ونحن نقول : « اعرضوا أنفسكم على موازين القرآن » .

* لن تكون المعاصرة أو التقدم أو الحداثة على حساب الركائز الأساسية أو القيم الأصيلة ، ولن يكون مفهوم التقدم سبيلاً للقضاء على جذر واحد من جذور الأصالة .

* فنحن نفهم التقدم جامعاً بين المعنوى منه والمادى ، وليس التقدم المادى الخالص .

* نحن لانرفض العصر ولا نتقوقع فى الماضى ، ولكنا نقيم أساساً إسلامياً خالصاً نواجه به التراث والفكر المعاصر على السواء .

* إن حاجتنا إلى الغرب تتلخص فى حاجتنا إلى مفاتيح العلوم التجريبية والتكنولوجيا لننقلها إلى لغتنا العربية ومحيطنا الإسلامى .

* إن النظرية التى تحاول أن تربط بين العلوم التجريبية والفلسفات هى نظرية باطلة ولن نقبلها ، نحن نرفض أن يكون منهج الفلسفة الغربية موازياً لمنهج العلم التجريبى . أما طريقة العيش الغربية فهى لا تناسبنا ، ذلك لأن لنا منهجاً إسلامياً خاصاً فى العيش والحياة .

* إن أكذب ما ينقل إلينا ونضلل به . هو تلك الرابطة الوهمية بين

العلم التجريبي وأسلوب العيش الغربى ، إن كل ما ينقل إلينا لا يزيد عن أن يكون خامات نشكلها فى إطار فكرنا ومعتقداتنا .

* ليست هناك صلة ما بين العلوم التجريبية ، وبين العلوم الإنسانية والأيدلوجيات أما الأولى فنحن نأخذها لأننا شاركنا فى قاعدتها الأولى . بل نحن الذين أقمناها أساساً ، أما الأخرى فلاحاجة لنا بها . لأن لدينا منهجاً خاصاً بنا لا نريد به بديلا .

* إن العلم فى إطار فكرنا الإسلامى له منطلق مختلف عن منطلق العلم فى الفكر الغربى : إن الإسلام هو الذى فتح لنا آفاق العلم التجريبي حين أعطانا مفهوماً كاملاً للكون والطبيعة ، ولعالم الغيب وما وراء المادة ، وبه أطلق لفكرنا وعقلنا الحركة فى اكتشاف نواميس الكون المادى والانتفاع بها فى تعمير الحياة وتقدمها . ومن هنا فإن تجارب العلم الغربى حين ننقلها لا تفرض علينا فلسفة ما . أو أيدلوجية ما . أو التزاماً ما . أو أسلوباً للعيش . وإنما نحن ننقلها لنحركها فى إطار التوحيد الذى يجعلها أداة خير وهدى وإسعاد للبشرية جميعاً .

* إننا أمة ذات حضارة متميزة ، وذات أصول فكر ، لها طابعها الخاص . ونحن مدعوون للمحافظة على ذاتيتنا الخاصة ، فلا نخلطها أبداً بغيرها ، ولا نصدر إلا عنها . ولقد كان جهاد علمائنا ونوابغنا على مدى العصور منصباً على حماية هذه الأمانة ، وهذه الأصالة . هذا الطابع الربانى المصدر ، والإنسانى المخبر ، حتى لا نذوب فى الأميمية ، ولا فى مذاهب أهل العقائد والنحل ، وحتى يظل المسلم كالشامة فى الناس . ونظل على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

* لذلك فنحن لا نرى أن مناهج العلوم التجريبية صالحة للتطبيق فى مجال الدراسات الإنسانية . وخاصة فيما يتصل بالنفس والأخلاق والمجتمع .

* نحن لا نرفض العصر ، ولكن نتقبل منه وننقد ، ونقف أمامه بأصالة فكرنا وفهمنا الثابت لنرد ما يتعارض مع الإسلام ، ونقول إن على المجتمعات أن تعدل مسارها حتى تلتقى بالإسلام ، وليس على الإسلام أن يؤول أو يتخذ مبرراً ليتقبل انحراف الحضارات أو فساد المجتمعات .

* ونحن نعرف أن ذاتية المسلم المتميزة الآن هى : هدف من أهداف التغريب والغزو الثقافى ، وهى الخطر الواضح على الأيدلوجية التلمودية المتسترة وراء عديد من المذاهب النفسية والاجتماعية والاقتصادية . ولذلك فنحن نفهم الأصالة على أنها التميز والتفرد غير المنغلق القادر دائما على أن يقف على قاعدته الصلبة فى مواجهة الرياح التى تهب من كل مكان ، أما الجديد فنأخذ منه وندع ، ونضيف إلى ذاتيتنا كل ما يزيدها قوة ، ولكل أمة روحها الخاصة ، وطابعها المميز . هذا الطابع الذى لا ندع لأى قوة مهما بلغت أن تذهب به أو تنتقص منه ، أو تحتويه تحت أى اسم من هذه الأسماء الرنانة : التقدم . أو الحضارة . أو التفتح . أو الحداثة .

إن أمتنا تحت اسم واحد تستطيع أن تقوم وتسقط كل الأسماء ، ولكنها تحت اسم واحد تستطيع أن تقوم فلا تسقط أبداً ، هو :

القرآن الكريم

ثانياً : عالمية الإسلام

فى مواجهة النظريات والأيدلوجيات الوافدة

إن عالمية الإسلام تواجه الآن تحدياً واسعاً وخطراً ضخماً يحاول أن يحتوى أمته ويسيطر على فكرها ويهدد مقدساتها ومقرراتها وقيمها الأساسية بتحويلها من المنهل العذب والمورد الثر : مورد القرآن الكريم نور الله وهديه إلى العالمين إلى موارد كدرة مليئة بالأخطار والأسواء هى موارد (الركام البشرى) الذى جمعته قوى الشر والباطل لتحارب به كلمة الله . والتى حاولت أن تخرجه إخراجاً له طابع علمى براق لتخدع به المسلمين بعد أن خدعت به كثيراً من الأمم وتحقق لها بالفعل .

وأبرز هذه التحديات تلك النظريات المطروحة فى مجال النفس والأخلاق والاجتماع ، بينما هى وجهات نظر لأفراد ، وهى بمثابة فروض يراد النظر فيها عند التطبيق : هل هى صالحة أم غير صالحة . وهى مقدمة لأمم أخرى غير أمتنا ، أمم لم تجد لها منهج حياة ولا نظام مجتمع . فقد كان دينها مقصوراً على العبادة . ومن ثم وجدت نفسها فى حاجة إلى أن تضع لها نظاماً اجتماعياً وسياسياً وقانونياً . حاولت أن تستمده من الفكر الوثنى الهلينى . أو الفكر البابلى القديم . أما المسلمون فليسوا فى حاجة إلى هذا . لأن الإسلام كفاهم الأمر كله حين يقدم لهم منهجهم الإنسانى الجامع الذى يرسم وسائل التعامل مع الحياة والمجتمع والعلاقات

البشرية والإنسانية . وذلك حتى يحميهم من أهواء النفس ورغبات الذات ، وتقلبات الحياة فأغناهم عن أن يشرعوا لأنفسهم ، وحررهم من عبودية الإنسان ووثنية الأصنام .

أما فى الغرب فقد ظهرت نظريات متعددة تحت اسم علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق ، وكلها فروض مطروحة فى أفق البحث ، وليست علوماً بالمعنى المفهوم لكلمة علم ، وهى تستهدف بيئاتها أولاً . وتحاول هذه النظريات سواء منها ما اتصل بالنفس أو بالمجتمع أو بالأخلاق أن تقرر بأن الإنسان حيوان مادى لا تهمه إلا الغريزة أو لقمة العيش ، وأنه مجبر لا إرادة له ، وأنه عاجز عن أن يختار لنفسه شيئاً . وأن الأسرة ليست فطرة ، وأن الدين غريب عنه . قد نبت من الأرض ولم يتزل من السماء .

وكان حقًّا علينا قبل أن نخوض فى الموضوع أن نعرف أبعاده وخلفياته وبواعثه ، وكان حقًّا علينا أن نكون دائماً فى حذر من كل ما يقدم لنا من خارج نطاق فكرنا لأمرين :

أولاً : لأنه ليس مطابقاً لذاتيتنا الخاصة ولا لمجتمعنا .

ثانياً : لأنه يتسم بسمة الإحساس الغربى بالاستعلاء العنصرى . أو التعصب الدينى . أو الرغبة الاستعمارية . فهذه الأمور الثلاثة تحول دون أن يكون ما يقدم لنا سليماً ، أو مقبولاً على علاته ، ونحن كمسلمين أمرنا بالحذر ونهينا عن التبعية . وكان حقاً علينا بعد الضربات المتوالية خلال السنوات الطويلة أن تكون قد تكونت لدينا حاسة الحرص والحذر فى نفس الوقت الذى يجب أن يكون فشل تجاربنا مع المذاهب الشرقية

والغربية قد أقنعنا بأنه ليس لنا إلا طريق واحد . هو طريق : لا إله إلا الله . ولقد كان الاستعمار هو عدونا الأول . ثم ثبت أن هناك أعداء كثر . منها الشيوعية ومنها الصهيونية ، ومنها الوثنية . وكشفت الأحداث – لتزيد توعيتنا وتضيء طريقنا فى السنوات الأخيرة – عن خطط سرية تراد بالبشرية تحت عنوان (بروتوكولات صهيون) التى تريد احتواء الإسلام بعد أن احتوت المسيحية والغرب وهدفها الأكبر هو تدمير المجتمع البشرى قبل السيطرة عليه . وذلك بعمل واحد هو هدم (الإنسان) . فالإنسان اليوم هو الهدف . ولقد حرص القرآن على أن يرسم للإنسان طريقاً يحميه من كل الأخطار ، ويكشف له عن كل المحاذير ، ويضيء له السبيل المستقيم فى أن تكون وجهته إلى الله سبحانه وتعالى . (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . ولذلك يحق لنا أن نقول إن لنا : « علماً إسلامياً » للنفس « وعلماً إسلامياً » للأخلاق « وعلماً إسلامياً » للمجتمع ، فلماذا نلجأ إلى علوم الآخرين نعتنقها ونؤمن بها . إن الخطر هو أننا فرغنا عقول شبابنا وقلوب ناشئينا من التعبئة الإسلامية عن طريق التربية ، فأصبحت متطلعة إلى أى مما يلقى فى طريقها وخاصة إذا كان مسايراً للغرائز والأهواء والرغبات ، وفاتحاً الطريق أمام اللذات . ذلك أن الإسلام إنما يفتح لنا الطريق إلى الرغبات والمطامح النفسية . غير أنه يجعل لها منطلقاً وضوابط ومحاذير تستهدف فى الأصل حماية الإنسان من خطر الانهيار والتدمير ، وأن الذين فتحوا الطريق أمام الأهواء إنما كانت لهم تحديات من عقيدة ودين أغلق أمامهم باب الرغبات ، وأسلم الإنسان إلى رهبانية عنيفة صارخة

تنكر على الإنسان كل ما أحل الله له من زواج وطعام ومتاع . ولذلك فقد جاءت هذه الموجة من الفكر المادى الوثنى الحديث كرد فعل . لذلك الإغلاق الشديد . ومن هنا كان هذا الخطر الذى يحاول أن يحطم كل الحدود والسدود .

أما المسلمون فإن هذا الخطر ليس متصلا بهم ، وليس له فى مجتمعهم قضية أصلاً فلماذا يتشبثون بهذه النظريات ويتعصبون لها . ؟ .

أخطر ما فى النظرية المطروحة : فى النفس والأخلاق والاجتماع . أنها مادية صرفة وأنها ترغب إلى تدمير النفس الإنسانية ، وأنها ترى أن مصدر تصرفات الإنسان هو الغريزة ، وأنها تعلى حيوانية الإنسان وتنكر روحانيته ، وأنها تحاول بذلك كله أن تخلق صراعاً عنيفاً بين الأب والأم فى محيط الأسرة لهدم قوامة الرجل على المرأة ، وتحطيم قيادة الرجل للأسرة . وهى بذلك كلها تمثل جوهر الفكر التلمودى اليهودى الهدام لكل القيم ، وتستهدف خلق أجيال هشة فاسدة منحلة لا تستطيع أن تقوى على حماية مقدرات الأمم ومقدساتها .

ونحن لا بد لكى نفهم هذه النظرية أن نفهم طبيعة الفكر الغربى ووجوه الالتقاء والخلاف بينه وبين الفكر الإسلامى .

لقد تشكل الفكر الغربى من مصادر ثلاثة : الوثنية الهلينية ، والمسيحية الغربية ، والفكر التلمودى اليهودى ، وعندما انفصل الفكر الغربى الحديث عن الدين ، خلق تياراً مثالياً حاول به أن يستغنى عن الدين بقيم أخلاقية . غير أن هذا التيار لم يلبث أن انجرف تحت وطأة

التيار التلمودى المادى الذى غلب وسيطر واستطاع أن يستوعب الفكر الغربى إلا قليلاً .

وتتمثل طبيعة الفكر الغربى فى (التجزئة) : تجزئة النظرة إلى الأمور . بينما يتمثل الفكر الإسلامى فى (تكامل النظرة) . فالفكر الغربى يفصل بين الأشياء فصل التعارض والمحافظة استمداداً من طبيعته الأصلية التى تعزل بين الدين والدنيا وفق قاعدة « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

ولذلك واستمداداً من طبيعته الخاصة ومزاجه العام تستحيل عليه عملية التكامل التى هى طبيعة أساسية للفكر الإسلامى . فهو حين يقبل العلم يرفض الدين ، وحين يقبل المادة يرفض الروح ، وحين يقر المحسوسات يرفض الغيبيات .

بينما يجمع الإسلام بين تلك القيم فى تكامل ومواءمة ، وتوازن دقيق بناءً على قاعدة أساسية ثابتة لا تتخلف ، هى أن الإنسان نفسه مادة وروح . فقد صنعه ربه من الطين ، ثم نفخ فيه من روحه .

ولذلك فالفكر الغربى يعجز عن التكامل ، ويعجب لإمكان تلاقى الروح والمادة والنفس والجسم . ذلك لأنه فى أعمق أعماقه يقوم على قاعدة الفصل بين القيم . ولا ريب أن هذا هو أخطر خلاف جذرى بين منهج البحث الإسلامى ومنهج البحث الغربى . ومن هنا كانت هناك فجوة ضخمة بين الفكرين فى مجال دراسات النفس والاجتماع والأخلاق .

لقد هدى الإسلام الإنسان إلى سنن الفطرة ، وبين له طبيعة الإنسان

القابلة للخير والشر ، والطريق المفتوح أمامه إلى الهدى والضلال ، والإرادة الإنسانية الحرة فى اختيار أيهما : هذا وقد منح الله البشرية عطاءً موجهاً هو الهداية الربانية (إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم) .

ومن هنا فإذا خالف الإنسان طبيعته الجامعة بين المادة والروح ، وجنح إلى أىّ السبيلين : المادية أو الروحية . فلا ريب أنه سيصل إلى التمزق والضياع . ولقد تمزقت المجتمعات التى عزلت نفسها عن الفطرة بالإغراق فى الروحية ، كما تتمزق اليوم نفس المجتمعات التى عزلت نفسها عن الفطرة بالإغراق فى المادية ، وهما أسلوبان ضالان ، وبينهما طريق وسط جامع متكامل هو المفهوم الإسلامى للحياة .

ومن هنا أيضاً كان خلافنا مع منهج الفكر الغربى الذى يحاول أن يخضع المفاهيم الإنسانية (ولا نقول العلوم) لمناهج العلوم التجريبية على أساس القول بأن الإنسان مجموعة من اللحم والعظم والشهوات والأهواء . وأنها جميعا يحكمها منطلق واحد هو الغريزة على النحو الذى قدمه فرويد أو المعدة على النحو الذى قدمه ماركس .

ومن عجب أن الفكر الغربى أخطأ مرتين فى فهم الإنسان .

أخطأ من خلال الفلسفة المثالية أمس .

ومن خلال الفلسفة الوجودية اليوم حين قرر أن الإنسان أرقى الكائنات وأنه سيد الكون ، وأنه وحده الموجود فى الكون .

وأخطأ مرة أخرى من خلال الفلسفة المادية حين قال إنه حيوان خاضع لغرائزه وشهواته ، ومن خلال الطعام واللقمة — والنظريتان تتعارضان

مع الحقيقة وتبتعد عن المفهوم الصحيح . فليس الإنسان وحده فى هذا الكون ، وليس هو الحيوان . وإنما هو مخلوق كريم للخالق الأكبر الذى اختاره واستخدمه فى الأرض ووكل إليه عمارتها بميثاق أمانة ومسئولية فردية ، والتزام أخلاقى ، وليس هو حيواناً ولا خاضعاً لغرائزه ، ولكنه مهيأً وفق إرادته لأن يختار أحد الطريقين (وهديناه النجدين) وهنا مناط الأمانة التى وكل الله أمرها إليه والتى تقوم على الاختيار . والإنسان بمفهوم الإسلام قابل للخير والحق والهدى مهيأً لذلك فى ضوء هداية الله . ومن هنا كانت حاجته إلى الوحى والنبوة والرسالة .

أما الفكر الغربى فإنه يقول بعكس ذلك تماماً ، ويرى أن طبيعة الإنسان ليست فى حاجة إلى توجيه إلهى . وأن الإنسان قد وصل إلى مرحلة الرشد فلم يعد فى حاجة إلى وحى السماء . وهذا كله باطل تماماً ذلك لأن الحضارة المادية قد قدمت إنجازات للإنسان فى المجالات المختلفة الخاصة بأسلوب العيش ، ولكنها عجزت عن أن تمده بأى تقدم فى مجال المفاهيم النفسية والروحية والأخلاقية ، لأنها أنكرتها أساساً . ولم تعد تعيرها أية قيمة .

وفى مجال الإسلام يختلف الموقف عن الفكر الغربى فى دعواه التى تقول بأن هناك صراعاً بين الجسم والروح .

لقد ألغى الإسلام هذه الفكرة الزائفة ودحضها وكشف عن الحقيقة التى هى أن الجسم والروح متكاملان . وبذلك سقط مفهوم الرهبانية القائمة على الرياضة العنيفة ، وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحى .

١٤٢

ومن هنا نظر الإسلام إلى الإنسان أكرم نظرة : نظرة قوامها الروح والجسد معاً وجعلهما معاً موضع التكريم . ودعا إلى الاهتمام بالطهارة الحسية والنظافة والزينة .

ثالثاً : الإنسان والعلوم التجريبية

أثبتت الدراسات الجادة أن محاولة إخضاع الإنسان والإنسانيات (النفس والأخلاق والاجتماع) للمناهج التجريبية التى تخضع لها العلوم المادية فيه تعسف كبير ، وأن المناهج التجريبية المطبقة على المادة تعجز عن الحصول على نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الإنسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

ذلك لأن طبيعة العلوم الإنسانية مختلفة متباينة . ومن ثم لزم أن يعالج كل منها مفهوماً خاصاً . وإذا كانت هناك قوانين لقياس الطبيعيات والرياضيات . فإن هذه القوانين تعجز عن قياس العواطف والمشاعر والأحاسيس ، ويرجع ذلك إلى أن حرية الإرادة البشرية تتدخل فى الظواهر الإنسانية وتغير مجراها تغييراً يجعل من العسير إخضاعها لقانون علمى ثابت – وأنه إذا كانت القوانين الطبيعية عامة صادقة فى كل زمان ومكان . فإن مقررات العلوم الإنسانية ترتبط بظروف شخصية وتاريخية متغيرة ، كذلك فإن الباحث فى مجالات العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه ، وهو ينظر إلى موضوعه الذى يتصل بالإنسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ونحو ذلك من عوامل تؤثر على نزاهته وتجعله ذاتياً أو متأثراً بالعوامل الذاتية على عكس الحال فى العلوم الطبيعية . إذا أردنا أن نواجه النظرية الاجتماعية نجدها فى مقدمة

مفاهيمها تنكر حقيقة ثابتة هى أصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى .

والقصد هو تضحية الأسرة من أجل قيام شيوعية المجتمع ، وفى المفهوم الأصيل أن الأسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يتخل جيل من الأجيال عنها .

والقرآن يقرر أن الأسرة نظام بشرى أصيل (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً) كذلك لا يعترف الإسلام بأى نظرية عن تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الأولى . ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادى (وذلك ما تحاول بعض دراسات الأنثروبولوجيا دسه وهو غير صحيح) .

وهكذا تجرى النظرية الاجتماعية المادية فى محاولة التشكيك فى أصل هذا النظام توطئة للدعوة إلى القضاء عليه – والنظرة الصحيحة ترى أنه ربما غلبت هذه الدعوة مرة أو مرات على مدى التاريخ الطويل بحكم الاستثناء الذى يحدث لاستعلاء الباطل والشر . ولكن الواقع أن هذه المحاولات كانت تتحطم بسرعة وتفشل فشلا ذريعاً لأنها تعارض الفطرة ، وتيار التاريخ ، وبعبارة واحدة فإنه قد عجزت كل المحاولات التى جرت على مرّ التاريخ للقضاء على الأسرة – وسيظل نظام الأسرة ثابتاً مكيناً ، ذلك لأن الأصول الإنسانية التى تقوم عليها ليست من صنع الأفراد ، ولا هى خاضعة لما يريد الفلاسفة أو صناع الأيدلوجيات . كذلك يكشف

الإسلام زيف المفهوم الذى طرحه علم الأنثر وبولوجيا . والقائل بأن البشرية بدأت وثنية . ثم عرفت التوحيد . أو القول بأن الدين نظام اجتماعى قابل للتطور مثل الجماعة نفسها فى تاريخها من تشريع وأخلاق . ذلك لأن الحقيقة العلمية . هى أن البشرية عرفت التوحيد بأول إنسان وهو آدم ومع أول نبي وهو نوح ، وأنها ظلت تتداول التوحيد والوثنية عصراً بعد عصر . ولم يكن هناك عصر واحد خال من التوحيد .

كذلك فإن الإسلام ليس ديناً وضعياً يخضع لما تخضع له الأيدلوجيات من تحوير وتعديل وتطوير . إنما هو دين موحى به من السماء . وقد أحكمت آياته على نحو يجعله صالحاً لكل الأزمان والعصور والبيئات . وأنه جاء على نحو من المرونة واتساع الأطر وملائمة الفطرة البشرية .

ولذلك فهو لا يخضع لما تخضع له الأديان الوضعية .

الأخلاق :

تقول النظرية الغربية فى الأخلاق إن مبادئ الأخلاق ما هى إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل فى الإيمان بها . وتقول إن الأخلاق تختلف عن الدين ، وأنه لا صلة بين الدين والأخلاق . وأن الأخلاق هى استجابة النفس إلى الوسط . فإذا ما تغير الوسط تغيرت الأخلاق . وأن هذا الوسط يتسع ويضيق باختلاف الزمان والمكان . كذلك تقول النظرية إن الأمم ليست فى حاجة إلى الأديان ، ولكنها فى حاجة إلى الأخلاق . وأنه يمكن الاستغناء عن الأديان اكتفاءً بالضمير الإنسانى .

أما النظرية الماركسية فترى أن الأخلاق مثل السياسة . والقوانين تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع .

ومجمل قول الفكر الغربى بشقيه أن الأخلاق نتاج البيئة ، وأنها تختلف باختلاف الأمم والعصور وتعبيرات المجتمعات . ولا ريب أن هذه النظرية فى ضوء الفكر الإسلامى تبدو ساذجة وقاصرة ومنشطرة وعاجزة عن فهم النفس البشرية ومضادة لحقائق التاريخ ومسيراً لأبطال وحياة الأمم ، وأنها ضد الفطرة ، ولا يقرها العلم ، ومفهوم الإسلام أن طبيعة الإنسان ثابتة لا تختلف وأن الأخلاق جزء من الإسلام . فالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق . وأن هناك فارقاً عميقاً بين الأخلاق الثابتة بالدين نفسه ، دين التقاليد التى تتصل بالمجتمع وتتميز بالتغير الطارئ .

فالإسلام يفرق بين الأخلاق والتقاليد . . والدين والأخلاق فى الإسلام لا ينفصلان .

والقرآن أصل الأخلاق الإسلامية ، والإسلام يربط بين القول والعمل والقيمة والسلوك .

والأخلاق فى الإسلام قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة ، سياسية واجتماعية وقانونية وتربوية .

وغاية الأخلاق فى الإسلام بناء مفهوم والتقوى التى تجعل أداء العمل الطيب واجباً حتماً ، وتجعل تجنب العمل الضار واجباً حتماً ، وتجعل الخوف من الله أقوى من الخوف من القانون والعقوبات الوضعية ، ويقرر الإسلام أن القيم الأساسية ثابتة لا تتغير لأنها صالحة لكل زمان ومكان . وأن الأخلاق والعقيدة والشريعة ليست من صنع الإنسان . ولذلك فهى

قائمة على الزمان ما قام الزمان ، وعلى اختلاف البيئات والعصور وأن الحق سيظل هو الحق لا يتغير .

ولذلك فإن قواعد الإسلام هى : « ثبات القيم » وبالتالى ثبات الأخلاق . وأن الألتزام الخلقى هو المحور الذى تدور حوله القيم الأخلاقية . فإذا زالت فكرة الإلزام قضى على جوهر الهدف الأخلاقى . ذلك أنه إذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية ، وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه .

فى الغرب أخلاق بلا إلزام ، وفى الإسلام أخلاق ملتزمة .

وثبات القيم فى العقيدة والشريعة يجعل لثبات الأخلاق قيمة أساسية تقوم على أساس القاعدة بأن طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغير . وقد جاء الحق ليقدم لها الضوء الكاشف والهدى الصحيح اللذين يحفظانها من القلق والتمزق . والتشاؤم والحيرة واليأس . وهى بغير هذا العطاء لا تستطيع أن تواجه الحياة .

ولقد ذهب العلم الحديث فى منجزاته إلى آفاق بعيدة من المتاع المادى والرفاهية . ولكنه ظل عاجزاً عن أن يعطى الإنسان لمحة سكينة أو نفحة طمأنينة ، إن الطبيعة الإنسانية لا تجد طريقها الحق إلا فى الاتصال بالله وفى التماس منهجه .

ومن هنا قرر الإسلام أن هناك قيمة ثابتة ليست من صنع الإنسان هى الأخلاق . وقيماً متغيرة لأنها مرتبطة بالناس والمجتمعات هى العادات والتقاليد . ومن الخطأ الخلط بين الثوابت والمتغيرات من القيم الأصلية الربانية ، وبين القيم التى صنعها الإنسان .

النفس ومذهب فرويد :

ثم نصل بعد ذلك إلى نهاية المطاف ، وإلى أخطر ما يطرحه المذهب الغربي الوافد فى مجال النفس . وهو مذهب فرويد الذى لم يكن إلا مذهباً واحداً من عديد من المذاهب ، ولم يكن أحسنها . وإنما كان أبعدها عن الفطرة ، ولكنه وجد من يدافع عنه ويسوق به الناس سوقاً حتى سيطر سيطرة كاملة فى الجامعات ، وفى منهج الأدب والقصة ، وفى منهج التربية . وبذلك حمل إلينا أخطر المفاهيم التى كان لها أبعد الأثر فيما أصيب به المسلمون فى العصر الأخير من نكبة ونكسة .

والحق أن نظرية فرويد لم تكن إلا مجموعة من الفروض التى استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين ، وليس من الأصحاء أو الأسوياء ، وهى وجهة نظر مطروحة للنظر . ومع الأسف فإنهـــا لم تثبت طويلا فى مجال التجربة .

أولاً : قال كثير من الباحثين إن « فرويد » أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء ، وأنه يرمى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمى أو السند الواقعى ، وأنها تقوم فى أغلبها على الافتراض ، ثم تصديق ما يفترض فيبنى عليه ، وكأنه حقيقة علمية ، لا يأتيها الباطل . وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة أدنى بكثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهواء أو الشراب أو الطعام . ثم إن الدافع الجنسى يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فية . وبذلك لا تكون العفة أمراً

ليس ممكناً فحسب . بل ضرورياً . .

ويرى الباحثون أن نقطة الضعف الأساسية فى فرويد كعالم هى أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة — وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أخلاقه وحبه ومشاكل صباه كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة كل تصمياته . والفلسفة الفرويدية تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية . (أى أنها تعارض أبرز معالم الإسلام . وهو إرادة الفرد التى هى مناط مسئوليته) والفلسفة الفرويدية تنظر إلى الإنسان على أنه القاعدة الحرية الخاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة وأن فرويد أسرف فى إرجاع كل ظاهرة سلوكيــة إلى الغريزة الجنسية .

ثانياً : لم تكن فرضيات فرويد موضع القبول من العاملين معه فى حقل علم النفس . بل على العكس من ذلك كانت موضع المعارضة . وقد عارض أدلر وبونج نظرية فرويد فى الجنس ، ورفضا رأيه فى الغريزة الجنسية وفى الطفولة وفى عقدة أوديب .

أما إدلر فإنه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله وأرجع تكوين الشخصية أو نشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة فى القوة والتعويض عن نقص الكيان ، ويعتقد أدلر أن حافز توكيد الذات . وليس الدافع الجنسى هو القوة السائدة الإيجابية فى الحياة ، ويرى يونج أن الجنس ليس الدافع الحقيقى ، ولكنه الرقى والسادة والرغبة الملحة فى التفوق . وأن الحب ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه السيادة . وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسى .

ويرى أدلر أن الشعور بالنقص هو أهم من الأمراض العصبية فى الأمور الجنسية التى بالغ فرويد فى إعلان خطورتها . ويقول ثالثهم يونج إن آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج ، وأن مصدر سرور الطفل فى الحصول على الغذاء هو اللبيد . ولكن يجب ألا يوصف بأنه جنسى أبداً . وذلك باعتبار أن الدافع الجنسى لم يتميز بعد عن الميل الابتدائى للحياة ، وينكر (يونج) أن اللبيد جنسى بكليته وهو يعتبر أن اللبيد هو إرادة الحياة .

ثالثاً : كذلك كشفت الأبحاث التى أجراها الأطباء النفسيون عن فساد نظرية فرويد ، وأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء هو المسلك المدمر فى تربية الأبناء . ويقول العلماء إنهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين ، فيهم الفقراء والأغنياء . وقد نشأ الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود التربوية القاسية ويدل ذلك على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل ، وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحـــدها .

وقد دعا كثير من الباحثين (منهم الدكتور ناثان كلاين) إلى نبذ نظرية فرويد فى العلاج النفسى والعقلى التى ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة . وقال : إن هذه النظرية ليست سوى معول هادم لعقول الشباب ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب ، ويرى أن القول بأن البيئة هى المسئول الأول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسى وعقلى هو الأصح .

رابعاً : يرى بعض الباحثين فى دراسات الأمم والسياسة والاجتماع

أن دعوة فرويد ومدرسته فى القول بأن الحياة النفسية للإنسان هى حياة حيوانية مطلقة وأن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطه . وأن الجانب المسمى بالروح لا وجود له مطلقاً . وأن القول بأن الحياة كلها جنس ومنبثقة من الجنس فى الدين والأخلاق . هذا القول كله على بطلانه العلمى إنما يرمى به فرويد إلى تحطيم القيم الأساسية التى جاءت بها الأديان . وأن ذلك أول أهداف الصهيونية التى تعمل على هدم النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيطرة على العالم على النحو الذى أرادته بروتوكولات صهيون التى تقول بأن لابد من تخريب العالم أولا قبل السيطرة عليه ، وكانت الصهيونية قد أذاعت دعوات ترمى إلى إسقاط حفاظ الإنسان وغيرته وكرامته بإنشاء جماعات أندية العراة وغيرها . ثم جاء دور فرويد فى هذا الإطار حيث أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملاً . ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً حين أراد أن يعلم الجنس البشرى بأنه جنس متحلل ينطوى على أسوأ النوايا ، وأخس الرغبات حتى إنه اتهم الجنس البشرى كله بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد قتل أبيه . وقد تبين بما لا يدع مجالا للشك فساد رأى فرويد فى أن معارضته فى القول بأن معارضته رغبات الطفل فى صغره ، تؤثر فى تصرفاته إذا كبر ، بل إن التجربة قد أثبتت بعد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل . وقالت هذه الأبحاث إن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة والوسط والحالة الاجتماعية . فلا سبيل لإخضاع تربية الطفل لنسق واحد .

خامساً : وبعد فلابد لنا فى النهاية من أن نعرض رأى الإسلام وموقفه من كل هذا . نقول إن الإسلام يقف موقفاً واضحاً صريحاً من مفهوم النفس والسلوك الإنسانى ، فهو يأخذ الكائن البشرى كاملا ولا يفصل بين نفسه وجسمه ، أو بين عواطفه وعقله ، أو بين ماديته وروحانيته ويؤمن بأن الإنسان ثابت الجوهر متغير الصورة ، وأنه لا سبيل إلى تفريغ كيانه من مضمونه أو النظر إليه على أن الهيكل البشري خال من الروح والوجدان .

ولذلك كله فالإسلام يعمد إلى إيجاد التوازن فى نفس الفرد وبين قواه المختلفة مما يؤدى إلى التوازن فى المجتمع فيحاول أن يحفظه دون أن يعتزل الحياة بالرهبانية ، أو يصرع نفسه فيها بالإباحة هذا التوازن الدائم هو الذى يحقق للإنسان قدرته على أداء رسالته وممارسته تجربته دون أن يفقد المسئولية باعتزالها ودون أن يعجز عن احتمال الأمانة بالانحدار عنهـا .

والإسلام يعترف بالكائن البشرى كما هو ، ويحقق له رغبات جسده وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوى للإنسان ، وبحق الفرد فى مزاولة هذا النشاط فى حدوده الطبيعية – واعتراف الإسلام بالطبيعة البشرية وبحق ممارستها يحول دون كل ما يسمى بكبت أو تمزق أو ضياع ، إنما يقع التمزق والضياع والكبت نتيجة الفصل بين القيم ، وإعلاء شأن إحداها . أما إعلاء الروحانيات بالزهادة المطلقة أو إعلاء الماديات بالإباحية المطلقة . . ومن حيث تكون النظرة إلى الحياة متكاملة جامعة . فإن الانحراف لا يقع كذلك . إن النظرية المادية الخالصة هى وحدها التى تخلق التشاؤم والشك والقلق الذى يحس معه الإنسان أنه

وحيد وغريب وشقى – هذا هو معنى التمزق والضياع . أما حيث يوجد التكامل الذى يقوم على الإيمان بالله ، فإنما تحل معه الثقة ويحل معه التفاؤل والرضا بقضاء الله . ذلك أن الإيمان قوة دافعة تعطى الأمل وتحول دون اليأس ، وتبعث الثقة ، وتدعو إلى المعاودة فى حالة الإخفاق .

إن أبرز معطيات الإسلام . الإيمان والتفاؤل برحمة الله . فليس فى الفكر الإسلامى طابع الانهزام أو اليأس أو الضعف أو التشاؤم الذى نراه فى الفكر ، ويتصل بهذا تحرر الفكر الإسلامى من طابع الوثنية فى عبادة الشهوة أوعبادة الأحبار أو عبادة الفرد أو عبادة ما سوى الله .

ويقوم الإسلام على فكرة التضحية والتقوى ، بينما يقوم الفكر الغربى على فكرة الرفاهية وهى تتعارض مع البذل والفداء .

سادساً : ولا ريب أن دراسة معطيات الفكر الإسلامى فى النفس تكشف بوضوح عن السبق الواضح للمسلمين فى مجال الدراسات النفسية ، ويبرز فى هذا فضل الأشعرى والغزالى وغيرهما . وقد كشفوا قبل الباحثين فى العصر الحديث عن حقيقة النفس والجنس وقالوا إن النفس لها جوهر روحانى بما يرى من شرف طباعها ومضامينها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب . وأشاروا إلى أن الغريزة الجنسية ركبت فى الإنسان لفائدتين : اللذة ، وبقاء النسل . وقالوا إن لهذه الشهوة إفراطاً وتفريطاً واعتدالاً ، أما الإفراط فهو ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى فيبعدهم عن سلوك سبل الآخرة ، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش .

وأن التفريط فى هذه الشهوة هو الضعف وهو مذموم ، وتمترج

مفاهيم النفس الإسلامية بالأخلاق والدين ، وترمى من ذلك أن تكون سبيلا إلى إصلاحها ، وإلى تهذيب الأخلاق والوصول بالمسلم إلى شاطئ النجاة إلى رضاء الله .

ويفسر الغزالى مظاهر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية هى : شهوة الطعام ، والجنس ، والمال ، والجاه . وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام . ويرى أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك ، وأن الخروج من الاعتدال إلى التفريط ، والإفراط هو مصدر الأمراض النفسية ، والعلاج هو العودة إلى الاعتدال . ومفهوم النفس فى الإسلام يقوم على أن الإسلام لم يحرم الرغبات الحسية . بل اعترف بها . ولكنه نظم الممارسة فى إطار كريم ومتوازن مع حاجات الإنسان الأخرى بحيث تتحقق أشواق الروح ورغبات الحس فى وقت واحد ، ودون طغيان أحدهما على الآخر .

وليس على هذا الأسلوب الذى يدعو إلى الانطلاق الذى تدعو إليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية ، هذا فضلا عن أن وصف الرغبات الحسية بأنها من عوامل الكبت وأنها من مصادر الخطر العقلى والجسمانى هو وصف مبالغ فيه – والإسلام يجعل ممارسة الرغبات الحسية بعد الاعتراف بها ، وتعليتها لمن لا يستطيعها فى وقته الحاضر ، يجعل لها إطارين وحاجزين وضابطين :

الأول : إطار النظام الاجتماعى وقوانينه المحافظة من أخطار الزنا والإباحة .

الثانى : إطار الضوابط التى تحمى الطبيعة البشرية من الانهيار والتحلل .

ومن هنا يمكن القول بأن مناخ المفاهيم النفسية الغربية إنما يستمد استجاباته من تحديات معينة . هى : خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية فى أوربا ، والتى استمدت مضامينها من جو الرهبانية ، وإنكار العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة حيث بالغت المسيحية الغربية فى فرض القيود على النشاط الحيوى . وإنكار حق الفرد لا فى مزاولته . بل أيضاً فى الإحساس بالرغبة فى هذا النشاط . فهى لا تكتفى بوضع القيود على المجال العملى . بل تتعداه إلى مجال الشعور فى داخل النفس ، وعلى سبيل الإلزام ، وهذا يعنى معارضته الطبيعة البشرية ، ومقاومة الرغبة الأصيلة فى النفس وامتهان الجنس كوسيلة لا وسيلة غيرها للارتفاع بالروح . وقد صاحب هذا الاتجاه دعوة حارة إلى الرهبانية والأديرة وما اتصل بها من أحداث وأهواء . بالإضافة إلى عدم إباحة الطلاق ، كل هذا أدّى إلى تحدّ خطير ، وإلى رد فعل كبير ، لأنه يتعارض مع الطبيعة البشرية . فكان فرويد هو صاحب مدرسة تبرير هذا المد الجنسى الإباحى المضاد للاتجاه السابق .

أما نحن فى عالم الإسلام فأمرنا يختلف ، مفهومنا متكامل جامع ، والنفس المسلمة سوية مطمئنة لا تنحرف إلى الفاحشة ، ولا إلى الرهبانية ؛ وترضى بالاعتدال والتوسط ، وتجمع بين رغائب الجسد وأشواق الروح ومطامح الدنيا ومقاصد الآخرة على سواء . . .

أفاق البحث

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٧/٣٩٠١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٩٢٤ – ٣

١/٧٧/٥٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)